٣٦ ساعة في خان شيخون

رواية

محمد عبدالستار طكو

رواية

٣٦ ســاعة
في خـان شــيخـون

إن كـنــّا نلتقي لنموت، فهل علينا أن نفترق لنعيش؟!

محمد عبد السـتّار طكّـو

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٩/١٠/٥٤٥٢)

الواصفات: الرواية العربية // الأدب العربي // العصر الحديث/
رواية: ٣٦ ساعة في خان شيخون
المؤلف: محمد عبدالستار طكو

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن راي دائرة المكتبة الوطنية أو أية جهة حكومية أخرى

للتواصل مع المؤلف:
٠٠٩٦٢٧٩٥٤٨١٥٠٩
mhdtegkoo@gmail.com

الإهداء :

إلى معلمي الأول (صفوان خ) الذي شجعني كثيرًا وسقط بنيران الظلم والإجرام.

إلى سوريا الإنسان والوطن.

إلى الأحرار الواقفين كأشجار الزيتون والسنديان.

إلى الذين خرجوا عن صمتهم كي نكتب نحن.

محمد

بطاقة محبة:

الروائي محمد فتحي المقداد

الأديب والناقد زياد صلاح

لعلّ الدفع باتجاه خطٍّ واحد أصبح من المستحيلات في عالمنا الحالي، فأغلبنا لايمكن أن يتحلى بساعة واحدة من الراحة، أو بفسحة من التفكير. فالمشهد العام أكثر تضارباً وتشعّباً.

لكن الأشياء أو المواقف التي تجبرنا على الاختيار تبدو في كثير من الأحيان أشد قسوة من الاختيار نفسه.

والسؤال الذي لن نجد له إجابة كاملة: ما هو الواقع الذي نعيشه وما هذا المشهد؟!

في الأصل نحن لا نحتاج إلى إجابة كاملة؛ فربما من المستحيل أن نجد إجابة كاملة، أو حتى شبه كاملة، لكننا نبحث عن إجابة مُرضِيَة إلى حد ما لطريقة تفكيرنا أو تتماشى مع معتقداتنا، أو أنها تقودنا إلى سؤال يطيل أمد الأمل.

فهل ما نتوصل إليه – إن كان إلى حدّ ما سيرضينا– سيرضي غيرنا في الوقت نفسه، هذا إن كنّا جميعاً نقف على نفس المسافة من المشهد، وحتى لو كان من أبناء جلدتنا. لربما من المجازفة الخوض في هذه التفاصيل، إذن علينا في كثير من الظروف الرجوع إلى المسار ذاته وقد نمضي تحت تأثير الدافع الذي يزيد من ضغطه.

بَيدَ أن السير حسب ضغط الدافع هو سير بدون مقاومة، أو هروب من تأثير الدافع.

غير أننا ككثيرٍ من أوراق الأشجار والرمال، نتحرك تحت تأثير قوة الرياح دون أية مقاومة، أو محاولة التخلص من تأثير الدافع.

فماذا عن الخروج من التيار الذي ندور فيه تحت ضغط معين. وحتى تلك الأوراق التي تنفلتُ بصورة، أو بأخرى من تيار الهواء ستبقى تحت تأثير العاصفة ولو من بعيد.

فلعل ورقة ما رَكنتْ إلى جدار أو صخرة ما، راحت تراقب أخواتها، كيف يجرفهن التيار، تنتظر أن تمتد يدُ التيار إليها ذات طيشٍ أكبر.

هذا الفعل قد يجعل المجازفة في ترك المسار، أو التيار أمراً جنونياً، أو أمراً أكثر تعقيداً، وأقل راحة من تأثير التيار نفسه أو ضغطه على حدٍّ سواء.

فهل نملك مقاومة التيار، أو أدنى فكرة لمحاولة كبح جماحه أو التشبث بأرضنا؟!

حتى معنى الأرض يحتّم علينا المقاومة، أو المناورة قليلاً. فالتيار عندما يحمل الأوراق فإنه يلقيها في وطن غير وطنها قريب أو بعيد. ولكن هل للتيار الجارف وطنٌ يمضي إليه؟!

غالباً حين تكثر الأسئلة تزداد الحيرة وتتيه الإجابات، وقد لا نملك لأنفسنا رؤية واعية في أدنى تفاصيلها.

ربما تكون الحاجة إلى ثقة ذاتية، أو بناء الذات أهم خطوة من الممكن أن نخطوها.
وماذا يعني هذا في المجتمعات التي تقع تحت قبضة الدكتاتوريات؟!

***

كم سيفرح والدي، وهو يراني أسير على وقع خطاه، في حركاتي وسكناتي، حتى طرق التفكير في الكون والحياة والموت.
أليس والدي هو من علمني التفكير؟ أو لنَقُلْ معالجة ما يجري أوقراءة الواقع بنظرة مختلفة. فما الذي أجبره على الخروج بأمّي؛ لكن ماذا لو؟!
حتى والدتي ستكون سعيدة بطريقة تفكيري.
يا الله كم أشتاق إليهما. هل عنادي سبب ما أنا فيه الآن؟!
ماذا لو خرجت معهم، أو حتى مع أخويّ إلى ألمانيا؟!
بالرغم من عدم قناعتي بجدوى الهجرة إلى أوروبا.
وكيف أقتنع. وقد فقدت أخي الأكبر في البحر.
نعم لقد خسرت أخي الأكبر في البحر ما بين تركيا واليونان، وانتهى أخي الآخر مفجوعاً به في ألمانيا وحيداً يصارع الحزن ومفرزات المجتمع الجديد.

خسارة الأخ أحياناً تعادل شطر الحياة، فكيف لك أن تهمس دون أخيك، أوتتنفس دون أن يقاسمك هواء الغرفة الصغيرة تلك، من غير أن يزاحمك على نافذة المنزل، وأنتما تسترقان النظر إلى بائع السحلب والكعك (المعروك)، وهو يجرّ عربته شتاءً منادياً (سَحْلَبْ حليبْ ... سَحْلَبْ حليب).

***

يااااه في هذه الثورة كم أطبقتْ أجفاننا على تعب، وسهرت أمهاتنا على قهر. كم من دكتاتورٍ في داخلنا. وفي أية غابة نعيش. هذا العالم يشبه؛ بل لا يشبه إلا النفس البشرية في صراعاتها وانكساراتها.

بعد أن غادر أخي هذه اليابسة وقرر الحياة وحيداً في أعماق البحر المتوسط مثل فينيقي شجاع يمتلك من إرادة الموت ما يمتلك من إرادة الحياة.

بدأت أعيد قراءة خرائط الأحداث منذ اندلاع الثورة السلمية، وحتى هذه اللحظة لماذا حدث ما حدث؟!، وما هو الطريق الذي نمضي فيه؟

في كل مرة أتذكر أصدقاء دراستي، أشعر بشيء من التوتر، فالخوف والريبة اللّذَان يتملكاني – حتى غضبي –، في كثير من الأحيان كانا يجعلان أي شيء ألمسه أشد حرارة من أصابعي، كأني أعيش تحت ضغطٍ مطبقٍ على صدري، كم أحسست بشهيقي ثلجاً يجمدني وبزفيري بركاناً

يحرقني. ككرة ثلج تتكور في يد صبيٍّ كانت الذكريات تتشكل ثم تتلاشى بعد أن يرميها من يده ليعاود طفل آخر إعادة تشكيلها بشكل وحجم يختلف عمّا مضى والصور عندي مثل كرات الثلج تتشكل ثم تتلاشى حين تتقاذفها الذاكرة.

***

وكم غافلتني ذكرياتي واقتحمت حاضري، عندما كنت في المدرسة مع أصدقائي بلباسنا الموحّد، وتهمس في أذني؛ أما آنَ لك أن تذكر تلك الأيام؟!

لعلي أذكر – منذ صغري – كيف كنت الأكثر أناقة بين أصدقائي، كيف لا، وأنا الأصغر بين إخوتي والمدلل، كيف لا، ووالدتي صاحبة ذوق رفيع وأنيقة في كل ما تعمل، فقد كانت تحرص على أن يكون كل ما يحيط بها هو الأجمل، بيتها أصائص ورودها في الشرفة، وكل شيء فيها، والأهم من ذلك زوجها وأولادها الثلاثة.

ولطالما قالت لي: "كم وددتُ لو كنتَ بنتاً" حتى أنها كانت تلبسني في بعض الأحيان، عندما كنت دون السادسة؛ أثواب وزينة البنات، لعل الكثير من الأمهات في فترة ما، يبحثن عن بنتٍ بعد عدة صبيان، لا أعرف ماذا

يعني وجود البنت أو وجود الأخت، ولكني أتمنى كوالدتي؛ لو كانت لي أخت صغيرة.

اللباس الموحد في المدارس، هل كان يخفي خلفه ما يمكن أن يقود إلى شيء من الجنون، أو إلى كل هذا الذي حصل بين الشعب الواحد.

لم أكن أكترث جيداً بهذه الأمور. فحينها كنت أعتبر أن اللباس الموحد كان فرضاً، وبغضّ النظر عن ماهيّتِه؛ إلا أنّه كان بلونٍ واحدٍ أو سِمَةٍ واحدة كقيمة دنيا من قيم النسيج المجتمعي. والآن حين أتذكر ذلك اللباس تراودني أفكارٌ عديدة.

***

في المدرسة لطالما أصابنا شعورٌ بالتفرقة والتمييز، التمييز القائم على أساس منصب الأب الحكومي أو أعماله الخاصة. وأغلب الظنّ أن هذا المرض منتشرٌ في دول العالم الثالث كلها وإلا لأصبح العالم الثالث عالماً ثانياً أو أوّلاً.

أتذكر عندما كنتُ في المرحلة الثانوية، موضوع التنسيب للحزب الحاكم في سورية، – طبعاً الانتساب كان لزاماً على الجميع– يومها كان لي

صديقٌ لأبٍ عربيٍّ، وأمٍّ سورية، رفض فعل ذلك؛ لأنه سيغادر إلى بلد والده بعد الثانوية.
فاجتمعت إدارة المدرسة، والكادر التدريسي، ولربما استدعوا بعض أعضاء الفرقة الحزبية لهذا الأمر، تُرى ما الذي يجعل من رفض طالب واحد الانتساب للحزب أمراً يثير سخط السلطة من القاعدة إلى رأس الهرم؟!
ما الغاية من ذلك؟!
والدي كان يقول لي دائماً: (اُدْرُس في سوريّة، واعمل خارجها)، هل كان والدي يلمّح إلى أمرٍ دون أن يصرّح به؟!

***

الكثيرُ من المشاهد تتصارع في رأسي. سابقاً لم أكن أجد لها تفسيراً، ولم أكن لأهتم بها، ولكن الآن بدا الأمر أكثر وضوحاً. فأنا اليوم مشتعلٌ بكل شيء في الواقع الذي نعيشه والماضي الذي يعيشنا.
فاليوم خلعنا جميعاً اللباس المدرسي الموحّد، وتخرجنا حسب خطّة الأدبيّات البعثية التي لامستها بشكل كبير؛ عندما درست في جامعة البعث في حمص؛ فيكفي أن تكون قريباً من عضو في فرقتك الحزبيّة؛ حتى تحصل على امتيازات كبيرة، في الجامعة والسكن الجامعي بما في ذلك علاقاتك

الطيبة مع المُدرّسين، ومع ما يتبادر إلى الذهن من علاقات غير أخلاقية مع الطالبات، وربما تصل إلى مرحلة الابتزاز، ومع هذا كان المشهد العام يبدو – حسبما يصوره الإعلام– موحداً متماسكاً، وهو بالفعل كان كذلك ظاهرياً.

لكن هذا الجسد كان يتكئ على منسأة بدأ الدود ينخرها منذ زمن مضى.

كل هذه الاختلافات وغيرها كنت أعيد تحليلها، والتفكير فيها بعمق بعد مرور سنوات الثورة القريبة. واختلاف التوجه بين الجميع. حتى الأشهر الأولى من الثورة، كان المشهد منطقياً إلى حدٍّ ما، بين نسبة كبيرة من الشعب تطالب بحريتها وحقوقها، وبين حاكم وأتباعه من موظفين، ومستفيدين، وفئات لا بأس بها ترى فيه أملاً، وممانعاً وغير ذلك. لكن (دوام الحال من المُحال) هذا المثل الشعبي يفسِّر الكثير.

فالمقاييس نسبية دائماً تزيد وتنقص من شخص إلى آخر، ومن ساعة إلى أخرى. وفكرة الوطن والقائد والمواطن تتغير بمعيار حاجة الفرد أو مصلحته، ومع اتساع رقعة المظاهرات، وارتفاع سقف مطالبها جعل الرد أقوى، وأكثر بطشاً بل اتجه إلى الدموية، ولعل مشهد الصدور العارية في بانياس، وأطفال درعا دليل واضح لكشف زيف اللباس الموحد.

***

نعم عندما نحاول قراءة المشهد من زاوية معاصرة بعيدة عن التنظير، سنجد أننا لم نكن جسداً واحداً يوماً، لقد كنا شِلَلاً وعصابات تختفي تحت مسمى الوطنية.

بالمناسبة حتى كتاب التربية الوطنية في نظري كتاب مُلفّق، فالحديث عن الحرية والإشتراكية والديمقراطية كان يُنسف في انتخابات الطلبة في الجامعة؛ لتظهر على السطح الطائفية والمناطقية والعشائرية بتحريك وتبرير من قيادات الفرق الحزبية في الجامعة، فما بالك بدائرة أوسع ونطاق أعرض من الجامعات والطلاب.

***

الآن يبدو المشهد أكثر وضوحاً وبعداً عن الضبابية، لم يعد هناك مجالٌ لتبرير إخفاء الانتماءات أو الميول، الكل يبحث عن مصالحه. فبعض أصدقائي مع جيش النظام، وبعضهم مع الميليشيات الإيرانية، ومنهم مع الجيش الحر، ومنهم مع جيش الفتح وكتائب عديدة، ومنهم مع داعش.

نعم هذه هي لحظة الصدق التي نحن فيها، ولا ضير في القول أن كلاً يغني على ليلاه، وله في ذلك أسبابه ودوافعه.

ولكن السؤال المهم كم شخصاً مثلي لا ينتمي إلا لسورية. صحيح أني لم أخرج في المظاهرات، ولكنني في نفس الوقت لم أخرج من سورية لأني أعتبر نفسي ركناً فيها.

في ظل كل ما يجري أظن أن ممارسة الحياة الاعتيادية بعد خروج أهلي من سورية، كانت مزيجاً من التناقضات. والتفكير يفجّر الرأس، وأنا أرى ما أرى. فأنت اليوم عاملٌ مدني في ثكنة عسكرية تسمى دمشق. تؤدي واجبك رغماً عنك تحت وطأة النظام العسكري والتهديد. في كثير من الأحيان تشعر في شوارع دمشق بفظاعة ممارسات الضباط والعساكر حتى على مستوى الأفراد وتصمت، خوفاً من انتهاك إنسانيتك تحت بسطار عسكري.

***

كلّ واحد من أصدقائي في زمن الثورة يدّعي أن الآخرين خونة أو كفرة، وبأنهم باعوا أنفسهم بالمال. وأن الذي يتكلم هو وحده على صواب. وكم دعيت إلى الانتساب إليهم. فأبقى صامتاً عبوساً مما يشعرهم بعدم الارتياح أو بالريبة تجاهي. البعض من المعارضة كانوا يظنونني شبيحاً، وجماعة النظام يظنونني معارضاً وإرهابياً وعميلاً، وأنا أعتقد أني سوري.

***

أنا على مشارف البلدة بعد كل هذا التعب. البيوت تبدو متلاصقة غير أنها ريفية بأسوارها، إلا أن آثار القصف ظاهرةٌ عليها بشكل كبير. وقفت للحظات أخذت نفساً عميقاً. تأملت كل المشاهد حولي، بعض الأطفال يركضون هنا وهناك. رجال يتخذون من ظل أحد الجدران مجلساً لهم. قليل من النسوة في الشارع. كان عليّ أن أتابع طريقي، وكأني أعرف إلى أين أذهب حتى لا أثير أي شكّ أو تساؤل. المكان الأفضل في أي بلد جديد هو المسجد. وهو همزة الوصل مع المجتمع ومكان التقائك بأكثر الناس دفئاً في أغلب الأحيان. على أقل تقدير لن تجوع هناك.

ما يثير الانتباه هو حركة الناس، وجوههم توحي أن كلاً منهم منهمك بشأنه، وماضٍ في طريقه حيث هدفه. فرادى ومثنى وأكثر. الطريق منهكٌ خربٌ، وكأنّه تعرض لويلات وأهوال من قصفٍ عنيف. الكثير من الجدران على جانبيه أيضاً بين المهدمة ونصف المهدمة. حتى الأبنية خلفها لم تكن معافاة أو سليمة. البلدة بدت جسداً ممزقاً كرجل أمضى عمره في الحرب ولمّا يجد في بدنه خلية واحدة لم تصب بأذى. وقطعةُ قماشٍ لم تمزّق بعد.

على بعد أمتار قليلة رأيت شبه مئذنة، نعم لم تكن كاملة. فالدمار والخراب غالباً عامٌ وشامل لا يعرف مسجداً ولا كنيسة. وصلت إلى المسجد أخيراً. السور الخارجي لم يكن سليماً، ولا بابٌ خارجي للمسجد.

تُرى من مرّ عليه بكل هذه الوحشية؟!

عندما اجتزت السور، وعلى اليسار وجدتُ حمامات المسجد، دخلتُ إليها مسرعاً، إلى المرحاض، ومن ثم جلست في المتوضأ حيث العديد من الأحجار مقابل صنابير المياه، ألقيت بثقلي على مقعدٍ حجري مربعٍ من الحجر السوريّ مقعرٍ من أعلاه، وبالرغم من قساوتها، إلا أني أحسست بشيء من الراحة يتسلل إلى داخلي عبر مساماتي، متلهفاً فتحت الصنبور، وضعت رأسي تحته. بدأت أحس بشيء من المتعة، برودة الماء على رأس أرهقه كل شيء تجعلك تحس بأنك ما زلت حيّاً، هذا الماء المتدفق بسرعة بين شعري الكثيف وصل دماغي، جذبني من الموت، وأعادني حياً. وما انساب منه على ظهري، وصدري أشعرني بالانتعاش، يا إلهي ما أجمله من شعور!

أدركتني نشوة الحياة، نشوة الولادة الأولى، ذاكرتي أخذتني إلى المطر عندما كنا صغاراً في طريق العودة من المدرسة، نلهو ونركض تحته، نتبلل، ونحن سعداء مُترفون بالبراءة، أيضَا ونحن نلعب الكرة، كنا نشعر بالتحدي،

والمطر يغرقنا والملعب العشبي، لا يهم كم تتشرب ثيابنا ماءً، وكم يعلق بها من وَحْلٍ. المهم أنك الطفولة بما فيها من براءة وسعادة.

رفعت رأسي، ورحت أضغط بيدي على وجهي محاولاً أن أبعد الماء عن عيني، فتحتهما، وأصابعي ما زالت حولهما لأجد عبارة واحدة قبالتي فوق الصنبور مكتوبة بخط اليد: (أخي المؤمن.. اقتصد في الماء ليتوضأ غيرك).

هنا أدركت أني أخطأت بما فعلت. توضأت بعد أن خفضت تدفق الماء في الصنبور، ثم نهضت، وخرجت تاركاً ورائي براءتي على تلك الحجر.

بالقرب من المتوضأ غرفة صغيرة تبدو لمولد كهرباء. صعدت بضع درجات. واجهت باب المسجد الخشبي، صافحت مقبضه لأجده مرحباً بي وكأنه يقول: (وعليكم السلام ورحمة الله)

دخلتُ، والكثير من الرجال يجلسون في هذا البهو الكبير للمسجد القديم بكل ما فيه، جدرانه عالية كما كلّ المساجد، منبره خشبي صغير، لا إضاءة فيه ربما تعمدوا ذلك؛ لتقليل الصرف، العديد منهم بين مستلقٍ على ظهره، وجالسٍ يقرأ وبين متجمهرين حول بعضهم بعضاً يتحدثون، منهم يضع سلاحه جانباً، ومنهم من يضع ضمادات من الشاش على مناطق عدة من أجسادهم، الميزة العامة أن معظمهم من الشباب، عدة أعمدة دائرية متوزعة على امتداد بهو المسجد، يحيط بكل عمود مكتبة صغيرة فيها

مصاحف، اقتربت من أحد الأعمدة، كان الوقت حينها أوشك على الغروب، صلّيت العصر وأنا مرهق حد السقوط.

استندتُ إلى العمود، ورحت في سُباتٍ عميق، ولم أكترث بمن كان حولي.

أحد الشباب أيقظني، فتحت عينيّ نظرت إليه، الإضاءة الخافتة في المسجد لم تكشف لي ملامح وجهه الحقيقية، الذقن الطويلة، الوجه النحيل، الجبهة الواسعة، طوله الواضح بلباسه البنطال وسترة من لون باهت أدركت فيما بعد أنه لباس الدفاع المدني، وما سموا بأصحاب الخوذ البيضاء. كنت أتأمله بشدة في اللحظات الأولى، وقد أعادني إلى المعتقل، وكيفية إيقاظنا، بينما هنا أيقظني بكل هدوء. – قال لي: أخي حانت صلاة العشاء.

(جملته هذه جعلتني أشعر بالأمان أكثر، منذ زمن بعيد لم ينادني أحد بهذه الكلمة، أخواي بين ميت ولاجئ في ألمانيا، ولا صديق مقرب مني، لأدخل معتقلاً تمارس عليّ فيه كل أساليب العبودية، ليأتي هذا الشاب بكل بساطة وينعتني بالأخ ...).

– أجبته: بارك الله بك...

نهضت بعد أن مدّ لي يده لأستعين به.

– أخوك خالد.

– أنا أحمد.

– أهلاً وسهلاً.

– أهلاً بك أخي.. سأتوضأ...

– زمزماً.

– جمعاً إن شاء الله...

اتجهت إلى الحمامات وأنا أفكّر في كلمة أخ، في هذا العالم المجنون وفي هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر. ما من أسرة إلا وتقطّعت أواصر لحمتها وتشتت سرب حمامها إلى طيور مفردة تهيم في كل وادٍ. كلمة أخ أو أخت لم نعد نسمعها كما يجب، كما كنا من قبل، مهما بلغت التكنولوجيا من تطور فلن تؤتيك الكلمة إحساسها وأثرها ما لم تشعر بدفئها وأنت أمام أخيك أو أختك، حتى الأم والأب، وقع الكلمة على النفس أشد أثراً وهم أمامك. توضأت والتحقت بصفوف المصلين وقد فاتتني الركعة الأولى. لأتمها فيما بعد. وما إن انتهيت حتى اقترب مني خالد قائلاً:

– تقبل الله.

قلت: منا ومنكم صالح الأعمال.

– تبدو كأنك من الشام أو ريفها.

– نعم من الشام.

– أهلاً بك.

– أهلي في الأردن وأخي في ألمانيا وأخي الآخر استشهد في البحر .... بقيت وحيداً وكان لا بد لي من الخروج من منطقتي.

– منطقتك كلها تحت سيطرة النظام، جيد أنك خرجت. الحمد لله على سلامتك. ورحم الله أخاك وكل الشهداء.

– الله يسلمك.

– أنت ضيفي اليوم.

– ما بدي أثقل عليك اخي خالد.

– لا ثقيل ولا شي.. الناس لبعضها.. وخاصة بهالثورة .. يللا تفضل خلينا نروح.

– يللا

خرجنا من المسجد تبدو هذه البلدة هادئة، صوت أقدامنا على الحصى والتراب مسموعٌ، لكن المزعج أكثر أصوات مولدات الكهرباء من كل جهة صوت مولد وأكثر.

– قال لي: "تعودنا على الأصوات".

– قلت: المهم أنكم بخير يا أخي

– قال: الحمد لله ...نسلم من طيران النظام والعدوان الروسي والصهاينة ونحن بخير..

– قلت: الله يحفظكم... وإن شاء الله تنتصر الثورة (قلتها وأنا أتذكر أني جئت هنا في مهمة للنظام، لا أعرف ما هي ولكن في النهاية ليست لصالح الثورة)

– خالد: "اللهم آمين.. أبو شو بلا صغرة".

أجب: "والله لسه ما تزوجت".

خالد: "الله يرزقك ببنت الحلال ويطعمك الذرية الصالحة".

قلت: "الله يحفظك .. وأنت أبو شو؟".

خالد: "أنا أخوك أبو محمد هدا أجاني قبل الثورة بس الله ينتقم منه بشار المجرم بالقصف المستمر علينا من سنتين استشهد (واغرورقت عيناه بالدموع).

– قلت: "وَكِّلْ الله أخي أبو محمد. الله بعوضك".

– خالد: "ونعم بالله.. وعندي صبية صغيره ماراح أحكيلك شي عنها بتسوى الدنيا".

– قلت: "الله يخليلك إياها ويحفظها".

خالد: "تسلم، الله يخليلك أحبابك".

وصلنا بيته ودخلنا بعد أن أخبر أهله بوجود ضيف. الطريق من الباب الخارجي كان مرصوفاً بقطع من الأحجار المكسّرة من (بلاط الحجر السوري) يتخللها الإسمنت، الأرض ليست مستوية والنتوءات تلاحظ من خلال الخطوات والضوء الخفيف القادم من جدار البيت، على جانبي الممر جداران صغيران بارتفاع نصف متر تقريباً على اليمين هناك حوضٌ ممتد على طول الممر وعلى اليسار تبدو حديقة صغيرة، فيها أشجار لم أكن

لأعلم من أي نوعٍ هي. لكن البيت يبدو كأنه جميل. دخلنا غرفة المعيشة ربما، فوق باب البيت هناك لمبة كهرباء ضوءها مائل إلى الصُفرة، تعطي البيت بعضاً من ملامحه. طلاء الغرفة أبيضٌ مصفر من الإضاءة الضعيفة أو من قدم الطلاء لست أدرك، الجدران عالياً أكثر من جدران بيوت المدينة، شباكان خشبيان كبيران على واجهتين متجاورتين، خزانة خشبية في زاوية قريبة من الباب عليها بعض الأمتعة كما تبدو مغطاة بشرشف مزركش بالزهور، عدة صور تتوسط الجدار المجاور للباب من اليسار من بينها صورة طفل صغير يبتسم وهو يحمل بالوناً أحمراً بثياب أنيقة. أدركت أنه ابنه وقفت عند الصورة كثيراً وأنا أتأمل هذا الطفل الوسيم كيف تستطيع يد الموت أن تخطفه من الحياة؟.

لم أنتبه لعدد الصور الموجودة على الجدار، ولا عدد الرجال في كل منها، ولم أهتم من منهم ميت ومن منهم حي، إلا أن صورة الطفل هزّت كل شيء داخلي، كما هزّتني قديماً لوحة الطفل الباكي. تلك اللوحة التي يعرفها العالم والتي تحكي عن الطفولة المعذبة والمقهورة، وصلت أرجاء العالم، وتأثر كل من رآها بها، وهنا ماذا عن هذا الطفل الذي يحمل ملامح السعادة والبراءة، كيف ومن اختطفه من الحياة، من الذي أضرم نار جنونه وحقده في هذا الجسد البريء، من الذي استلّ سيف غدره وغرزه في أجساد

الأطفال الذين لا ذنب لهم، كيف يسقط الأطفال هنا في بلادي ولصالح من؟
من له الحق في تدمير المستقبل؟!

***

استأذنني أبو محمد (خالد) ليتركني صامتاً سارحاً دون وعيّ، أمواجٌ عاتية تتلاطم وتفني بعضها في رأسي، المعتقل والتعذيب، التدريب والدروس الدينية والتمثيل، هجرة أهلي، الموت الذي يحيط بنا، مشقتي في الوصول إلى هنا، الهاتف النقّال وعلبة السجائر، المسجد، مهمتي التي لا أدري ماهي، خالد الذي استضافني. كيف سأتعامل مع كل هذه الأشياء؟!
هل ستكون المهمة خطرة أم قذرة؟!
عاد خالد بعد قليل مبتسماً كعادة أبناء الريف السوري عندما يحل عليهم ضيفٌ، يحمل (صينية) طعام كتلك التي كنت أراها في التلفاز، التي طالما وددت أن أراها وألمسها لأعرف كيف تم حبك القش ومن حوله الشرائط البلاستيكية الملونة.
وما أجمل ما عليها (خبز تنور مع زيت الزيتون والزعتر الحلبي واللبنة وزيتون مكسر)، الإحساس هنا بالانتماء إلى الطبيعة شيءٌ يجعلك ترجع

إلى حقول الزيتون في إدلب التي لطالما وددت دخولها وأنا أراها عبر الشاشات، والفلاحون يتحدثون عن قطاف الزيتون، يجتمعون حول الشجرة كأبنائها يجنون منها ما أكرمهم الله به من غلال في كل موسم. وماذا عن عصر الزيتون، والزعتر واللبنة، إنها الطبيعة أمنا التي نحبها ونبتعد عنها لنشتاق كل ما فيها، أوشكت أن أبكي حين رأيت هذا المنظر، أبعدَ كل هذا الجوع آكل مما تنتجه الطبيعة نقيّاً وأين ... في الريف السوري ... في الخضراء إدلب... لماذا كل هذا الخير؟!

هل أستحق أنا هذا؟!

آآآآه.. ما أجمل الحياة ببساطتها ... وما أجملك يا بلادي ...

قبل أن أبدأ بتناول الطعام، ذهب خالد مسرعاً ليعود بإبريق الشاي الكبير الأصفر مع كأسين. وكأنّه أُعدّ إعداده على نار الحطب فقد ظهرت عليه آثار الدخان الأسود من كل جانب.

إلا أن المنظر كان مشجعاً بما يكفي لتناول وجبة مفعمة بطبيعتها. أكلت بنهم شديد ولا أعرف كم استهلكت من أرغفة الخبز اللذيذة بالفعل، التي كان يسخّنها على مدفأة الحطب التي تتوسط الغرفة. خالد كان يأكل ويتكلم وكأنّه يُسايرني وهو سعيد بي دون أن يسألني كثيراً عن حياتي وأهلي. كان يتعامل معي بترحيب ومحبة. أما أنا فالجوع المسيطر علي، وخوفي من أن يعرف أية معلومة عني جعلني أنهمك في الطعام بشكل مفرط، غير

أن حديثه وما يقدمه لي، ترك حبه واحترامه ينساب وينسل داخلي مع كل لقمة أمضغها، وكل ابتسامة تلتقطها عيناي عن وجهه الجميل. خالد كان جميلاً بما يكفي ليحبه أي إنسان طبيعي شأنه كباقي أهل ريفنا الخصب خصوبة الأرض.

***

في سورية كل يوم تدرك موطناً للجمال.. يأخذك في رحلة شرايينه في فسيفساء جماله، وعمّ تتحدث أغنيات الياسمين وحساسين الشمال والجنوب. تحتار كثيراً أين تذهب وأية جهة تيمم. ففي كل شبر آية من الحسن ومعجزة إلهية هي الجمال كله. أنهيت طعامي وحمدت الله. ومن ثم ذهبت مع خالد فغسلت يديّ وعدت للغرفة برفقته بعد أن رَفعَ الطعام وأبقى إبريق الشاي بالقرب من موقد الحطب ليحافظ على دفئه.

خالد الذي أخبرني أنهم مشتركون مع عدد من الجيران بمولدٍ كهربائي واحد حتى لا تنقطع عنهم الكهرباء فهم بحاجة لما بات ضرورة في الحياة. أشعل التلفاز، حيث كان مهيئاً على قناة الجزيرة وهذا الوضع الطبيعي منذ شرارة الثورة الأولى. فمن غير المعقول أن يستمع أبناء الثورة لقنوات النظام، بل كان التركيز على الجزيرة والعربية وغيرهما، إضافة إلى بعض القنوات السورية المعارضة مثل (أورينت وغيرها..)، ولا غرابة في ذلك فالتلفاز

الحكومي سينطق باسم الحكومة في أي بلد في العالم. بعد قليل بدأ برنامج حصاد اليوم بأخبار سورية.

مرّت كل الأخبار بشكل طبيعي إلّا خبر تشكيل تلك الكتيبة ...، حين راحوا يبثون الفيلم القصير الخاص بها، وقائد الكتيبة يقرأ بيان التشكيل.

ذُهلت.. إنها صدمة كبيرة. كيف يمكن أن يحدث هذا؟!

قائد الكتيبة لم يكن صديقي ولم أكن أعرف اسمه أبداً. لقد كان بالنسبة لي رقماً كما كنت رقماً بالنسبة له. مستحيل أن يكون هو.. بل إنه هو.. هو بعينه. يا إلهي كيف يحدث هذا؟!

عدت بذاكرتي إلى المرحلة الأولى في المهجع الجديد، مظهره العام وخاصة وجهه قبل أن تطول لحيته. ما زلت أحدّق في الشاشة وأنا أستذكره، مقارنة بين ما أراه وبين زميلي في المعتقل. ملامحه هي نفسها، شكل الذقن. نعم هي منذ أن دخل أول شيخ علينا وطُلب منا إرخاؤها لتطول وتطول، تفاعله مع الشيوخ جميعهم، في التمثيل كان الأروع، وأجاد دوره بطريقة محترفة، ليظهر هنا، ولكن كيف يمكن ذلك؟!

من أين أتى بأفراد كتيبته، ماذا حدث؟!

هل ما زلت أحمل عقلي، هل يخيّل إليّ كلّ هذا ووهمٌ ما أرى؟!

من أنا ولماذا وماهي مهمتي؟!

ماذا أفعل هنا، هل سأفعل مثل زميلي؟!

ولكن ما الغاية من أن أصبح قائد كتيبة وأعلن أني ضد النظام وأنا خِفْيةً معه وأحد أدواته؟!

وكيف أتحدث باسم الدين والجهاد وأنا عميل للنظام؟!

كيف أقدّم نفسي للعالم أني صاحب دين ومجاهد وأنا أعمل تحت مظلة النظام وإمرته؟!

هل الصمت أم الهروب يجدي أحدهما نفعاً؟!

أنا ربما لا أكون مع الثورة ولكن لست مع هذا الغدر وهذه المؤامرات.

– خالد: "خير أخي أحمد ... أشو في.. شايفك مو على بعضك؟!!".

– أجبتُ: "مافي شي سلامتك ... بس مقهور شوي عالناس اللي عبتموت كل يوم".

– "أشو بدنا نعمل .... الله يخلصنا من هالمجرم ... خرب البلد..".

– "اللهم آمين".

سهرنا، وتحدثنا كثيراً حتى بدأت أغفو، فأحضر لي غطائين وبيجاما وتركني، قائلا: "إذا بدّك شي صيّح عليّ".

– "إن شاء الله ... تصبح على خير".

– "وأنت بخير أخي أحمد ... بتفيق عصلاة الصبح؟!!".

– "إيه لكان شو".

– "طيب رح فيقك.. السلام عليكم".

– "وعليكم السلام".

ذهب خالد وقد أطفأ النور تاركاً لي ضوءاً خفيفاً، ورحت أفكّر كيف حدث كل هذا؟!

ما جعلني أعيد قراءة كل شيء حتى دخولي هذا البيت، ولربما لم أنم إلا برهة.

***

فجراً ذهبنا إلى المسجد، كانت البلدة غارقة في بحر من هدوء وبعد أن أطفئت مولدات الكهرباء. دخلت حمام المسجد للوضوء، فجأة أحسست بهزة خفيفة صدرت عن الهاتف، أمسكته بسرعة، كانت هناك رسالة: **(حدّد بدقّة الكثافة السكانيّة في البلدة بأقصى سرعة)**.

قرأت الرسالة مرّات عديدة ثم حذفتها وأكملت وضوئي، ودخلت المسجد. صلّيتُ مُقتدياً دون أن أُركّز فيما قرأه الإمام، كان كلّ تفكيري في الرسالة حيناً، وفي ذلك الذي أصبح قائد كتيبة حيناً آخر. الأحداث تعجُّ في رأسي، ولا شيء يمكن تفسيره.

ماذا يريد النظام من التجمّعات السكانيّة؟!

هم يقصفون بشكل عام وعشوائي دون أي رادع لهم، لا أخلاقي ولا ديني ولا دولي. القصف بالطائرات والمدافع والصواريخ لا يفرق بين أحد، ولا يوفّر مسجداً أو حيّاً سكنياً أو مركزاً صحيّاً أو حتى مدرسة.

غريبٌ أمر هذا النظام.

لا ليس غريباً. ففي إحدى المرات، قال لي صديقي: كلّ الأمم التي مرّت في الشرق تركت خلفها إرثاً حضارياً كالإغريق والرومان وغيرهم. وحدهم الفرس والمغول من دمّروا ولم يعمروا ولم يتركوا أثراً حضارياً يدل عليهم في بلادنا. فلم يحملوا سوى الدمار من قبل الميلاد وحتى يومنا هذا.

ما السرّ في ذلك، ما سبب الحقد بداخلهم؟!

أنهينا الصلاة وجلسنا بعدها طويلاً في المسجد نتحدّث مع بعض الشباب بودٍّ. وقد قدّمني خالد إليهم وقدمهم إليّ. وبالرغم من حديثهم الشيّق إلا أني لم أكن مرتاحاً كثيراً، فشرودي كان أكبر من تركيزي.

بعض الإخوة أحضروا شيئاً من الطعام إلى ساحة المسجد من تمر وخبز وزيتون وزيت وزعتر وشاي، تناولناه جميعاً. ومن ثم أخبرني خالد أنه سيكون سعيداً لو بقيت معه وسيكون أكثر سعادة لو عملت معهم في الدفاع المدنيّ.

عندما خرجنا من المسجد ولبسوا لباسهم وأعطوني سترة وخوذة ارتبكت قليلاً. قلت لخالد: "كيف بدي اشتغل معكم وأنا ما بعرف شي!!".

– قال خالد: "شوي شوي بتتعلم.. وبعدين شغلنا ما بدو علم ... بدو شجاعة وإنسانية وتضحية .... وهي الأشياء موجودة بكل انسان حقيقي".

ملامح خالد بدت أكثر وضوحاً من ليلة أمس. شاب جميل وطوله يعطيه رونقاً رائعاً. كلّ هذا يختفي عندما يضع القبعة البيضاء على رأسه، لتبدو عيناه البنيتان وجبهته العالية فوق شاربين قصيرين وذقن لا بأس بها. والأهم من هذا ثقته بالنصر فهو متفائل لأن الثورة جعلت كثيراً من الشباب أكثر التزاماً، وأبعدتهم عن الكلام الفاحش والبذيء الذي يمكن أن تسمعه في الكثير من المجتمعات.

قاطعني خالد: "إيه أبو الشباب وين صرت؟!!".

– "هون ..هون".

– "يلا حبيبي ..عنا جولات ميدانية".

– "يلا".

للحظة أحسست أن خالداً هو أحد المخبرين ثم محوت الفكرة من رأسي، لأنه وسط أهله ومجتمعه.

بدأت الشمس تعلو وتعلو ونحن نتجول في البلدة. وبين الحين والآخر نلتقي أشخاصاً مختلفين: دفاع مدني ومعارضة وأهالي البلدة والكل يبدو أنه يحبّ خالداً، وكذلك بدأ حب خالد يسري في عروقي، كيف لا وأنا أرى محبة الناس له.

خالد نموذج جميل ورائع لشاب واعٍ وإنسان حقيقي.
لا أرى في عينيه إلا كل حب وطيب وأمل. والتفاؤل سمة طاغية على كل مافيه.
كان يقول لي: "الجمال موجود في الناس جميعاً، ولكن علينا أن نعرف كيف نظهره. فالأرض كلما اعتنيت بها أعطتك ثمراً طيب المذاق ومنظراً خلاباً، وكذلك البشر، كلما عاملتهم بلطف وحب أخرجت الدر الجميل منهم، وهذه من سنن الحياة".
مثل هذه العبارات كانت كفيلة بغرس حبه في نفوس كل من يلقاهم. بالفعل شعلة من الحب والحكمة.
قبيل الظهر اقتربنا من المدرسة. قال خالد: "هون بتْدرُس بنتي في الصف الأوّل".
- "جميل ... ما شاء الله".
- "بدي أروح مشوار وأرجع ما تروح عمكان خلّيك هون".
- "ماشي".
تركني خالد ومضى، وأظنه دخل خلف المدرسة في عمارة لأنه اختفى بسرعة.
بدأت أفكر في حجم المعلومات التي حصلت عليها اليوم. هل سأخبر الضابط بها أم ماذا؟!

أنا في حيرة شديدة، ربما يقتلونني، ولكن ماذنب الناس، إنهم طيبون جداً والتعامل معهم لا يحتاج رسميات أبداً. ودائماً مجتمع الريف أكثر ألفة وأقرب إلى القلب. وأنا بين هذه الأفكار لمحت خالد وهو يخرج من المدرسة ومعه طفلته الصغيرة مقبلين علي.

اقتربتُ منها وانحنيتُ مادًّا يدي لمُصافحتها. كانت طفلة كالملاك، جميلة جداً، بعينين ملونتين وشعر مفرود كشلالات ضياء، خدودها حمراء موردّة، إنّها السحر، حتى ملابسها تدلّ على أناقة وجمال.

- "مرحبا".
- "أهلين عمو".
- "شو اسمكِ".
- "سورية".
- "شو؟؟!!" (دهشت).
- "اسمي سورية .... أنا اسمي سورية".
- "أهلا وسهلا يا سورية ... اسمك كتير حلو".
- "ايه كتير عالم اسمهم حلو بس اسمي أحلى شي بالعالم".

لا أعرف كيف دمعت عيناي وضممتها بشدّة قائلاً لها: "ايه والله اسمك أحلى شي بالعالم ... أبداً مافي أحلى منه.. قبلتها على خديها وجبينها".

-: "انت عمو أحمد" (قالت لي).

-: "إيه إيه".

-: "ما تبكي ... سورية ما بتحب حدا يبكي".

-: "حاضر ... حاضر ... بس أنا ببكي من الفرحة".

-: "ولا من الفرحة ... الدموع غالية كتير ... ما بكفي كل البكي اللي صار؟!!".

-: "آآآآآآآآآآه .... ايه والله بكفي يا سورية، بكفي يا سورية".

حملتها بعد أن استأذنتُ والدَها ومضينا. ونحن في الطريق أمسكت قبّعتي بيدها وحركتها حسب استطاعتها: "بتعرف عمّو بتلبقلك هالطاقية... مبينة متل زهرة ياسمين وأنت متل الشجرة".

- "ما أحلاك يا سورية".

- "مو قلت لك سورية أحلى شي بالدنيا".

- "إيه وأنا مصدقك".

- "وين مرتك وأولادك".

- "ما عندي لسه ما تزوجت".

- "خلص عروستك عندي ... بس بشرط".

- "موافق".

- "اي مو لتسمع الشرط أول".

- "موافق بس لازم شوف العروس".

– "العروس كتير حلوة".

– "متلك ؟!!".

نظرت إليَّ بمكر الأطفال حركت عينيها يميناً وشمالاً، وقالت: "هي حلوة بس اتفقنا سورية أحلى شي بالدنيا".

–"ماشي ماشي موافق ... أنا بوثق فيك".

– "اسمع من هلّء لقلك بتشوفها وبتحكي معها إذا عجبتك منخطبلك إياها وإذا لا مالي علاقة ... بس الشرط أهم".

– "هاتي لشوف شو الشرط".

– "بتوعدني توفي فيه".

– "بوعدك إذا بقدر".

– "بتقدر".

– "بوعدك بس شو هو".

– "ما بتهاجر لأي بلد".

صدمتُ من جملتها. لماذا وضعت هذا الشرط.. لماذا؟!

طفلة بهذا العمر ما الذي تدركه من الحياة ومن الهجرة ومن الوطن لتضع لي شرطاً كهذا. ثوانٍ قليلة مرّت وألف سؤال يعصف برأسي.

قاطعتني: "بعرف كلكم بدكم تهاجروا، بس ما حدا فيكم سأل حاله لمين بدكم تتركوا البلد".

-: "أنا ما رح هاجر .. بدي أبقى هون يا سورية".
ابتسمت، وقالت: "انت عيني ... وأحلى عروس إلك".
تابعنا الطريق حتى وصلنا البيت، ولمّا ننتهي من حديثنا بعد أنا وسورية. ووالدها سعيد وفخور بها.
فهي بالرغم من صغر سنها إلا أنها شعلة من الذكاء والمرح والحيويّة، حديثها ولكنتها الطفوليّة تُنسيك الهموم جميعاً. أخبرني والدها أنّها تُشبه أمّها التي تعمل في المستشفى الميداني في قسم النساء.
وبحسب قوله فعملها مرهق وطويل جداً وخطر في كثير من الأحيان لكننا جميعاً في خندق واحد، ولا يمكن التراجع بأيّ شكل ولا حتى مغادرة البلد لأيّ سبب كان. خالد كان يقول إنّ أهله وبيوتهم وأراضيهم هنا. هنا وطنهم ووطن أجدادهم الذين ورثوا كل شيء عن عنهم، فكيف لهم أن يتركوها ويغادرون.

***

عندما دخلنا البيت أسرع خالد بتحضير الشاي، وأحضر معه بعض الخبز والزيت ودبس البندورة. وبدأنا ندهن الخبز بالزيت ودبس البندورة. هذه الأكلة الغريبة بالنسبة لي بالرغم من معرفتي لمكوناتها إلا أنّي حيت تذوّقتها

لأوّل مرّة، جعلتني بالفعل أدرك عظمة الإنسان السوريّ. هذا الإنسان الذي لا يعرف إلا أن يعيش، الإنسان الذي لا يبحث عن الترف، لكنّه يريدها حياة كريمة عزيزة. في هذه البلدة رأيت العجب من الناس. بالرغم من كلّ الشوارع والبيوت المدمر معظمها إلا أنّ الحياة في وجوههم، نعم هي الحياة. ربما هذا الإنسان لا يبحث عن شجرة الخلْد لكنه يحبُّ الجنة التي يقطنها. الأهالي الحريصون على إرسال أطفالهم إلى المدارس بالرغم من كلّ ما يحيط بهم من خوف وقتل والطائرات التي تقصف بين الحين والآخر. لا شك في أنهم يحبون الحياة ما استطاعوا إليها سبيلاً. طعم الخبز بدبس البندورة والزيت بعد تحميصه على مدفأة الحطب لذيذٌ جداً خاصة مع الشاي وابتسامة خالد والأهم حديث سوريّة.

سوريّة التي بدأت تتحدث عن مدرستها وزميلاتها وزملائها ومعلمتها كانت سعيدة بما تروي، وهي تراني مستمتعاً بحديثها. وقد رسمتْ لي صورهم جميعاً. بدأت أشعر أنّ كلّ طفل وطفلة منهم هو سوريّة بكلّ ما فيها. إنّهم يحتاجون الرعاية والعناية والحبّ كما سوريّة نفسها.

فما أجمل أن ترى الأطفال في عيون سوريّة أو ترى سوريّة في عيون أطفالها. كلّ شيء يمكن أن يمحى وأن تلمح سورية في هؤلاء الأطفال فهم حقيقتها وما يزيد عن ذلك ما هو إلا أثواب ألبست لجشع وغيظ وحقد.

في وجوه الأطفال ترى سوريّة بنضارة سهولها وجبالها. في حديثهم تدرك خير سوريّة ومستقبلها، ومن ابتسامتهم تقطف ثمار الأمل وفي وجوههم تشهد بيادر الفرح.

هؤلاء الأطفال ربّما لا يدركون حقيقة ما يجري كما ندركها نحن ولكنهم يعيشون الواقع ببراءتهم لا كما نعيش نحن.

– قالت: "انت اديش عمرك؟".

– "عمري ٢٥ سنة".

– "العمر كله ... أنا عمري ست سنين".

– "ما شاء الله عمر الورد".

– "شكرا ... بتعرف انا ولدت بـ ١٥ آذار".

– "يعني أنت ولدت مع الثورة ؟!!".

– "لا ... يعني لما سورية انولدت من جديد صارت ولادتها ثورة... هيك قال البابا".

– "إيه صحيح".

– "أنا بحب الثورة كتير ... ورح ننتصر ... بس في شي ضروري لننتصر".

– "شو هو؟!!".

–"ما حدا يسافر برا البلد .... كل الناس بتسافر ... ما بصير يسافروا".

– "كل واحد عنده ظروفه".

– "أشو هالظروف هاي ...، أنا ورفقاتي حلفنا: "والله العظيم والله العظيم ما منسافر من سورية".
– "وأنا معكم وعد".
– "إيه انت لازم تبقى كرمال العروس". قالتها (بدهاء).
ضحكت، وقلت: "إيه أكيد".

***

قطع حديثنا صوت الطيران الحربي، وهو يحلّق على ارتفاع منخفض في أجواء المنطقة، صمتنا جميعاً، وراح خالد يسأل الله السلامة للجميع ويدعو على الطيارات والطيارين ومن أرسلهم، دقائق قليلة مرّت، فجأة سمعنا صوت انفجارات بعيدة إلا أنها تبدو ضخمة. أصابني الذهول، خالد أمسك جهاز اللاسلكيّ الخاص به، وإذ بهم يخبرونه عبره بأنّ عدة براميل متفجرة سقطت على القرية المجاورة، وعليهم الذهاب فوراً.
– قال لي: "بتروح معنا ... رح تشوف الشغل اليوم".
–: "إيه أكيد بروح".
قمنا بسرعة وأخذ معه ابنته سورية؛ ليتركها عند زوجته، وأسرعنا في سيارة (البيك أب). كانت الطريق قصيرة إلى القرية والكل يذكر الله ويسأله السلامة. طائرتان تحومان فوق المنطقة، تلقيان بظلال الرعبِ في كل

مكان. السيارات تتحرك بسرعة، ثمّة خوفٌ من أي برميل جديد أو صاروخ تلقيه إحداهما علينا. أصوات التكبير تزيح كل هذه المخاوف وتعلي همم الجميع، وتكسر حاجز التوجس.

وعندما وصلنا ونزلنا، ووصلت معنا عدة سيارات ما بين إطفاء وإسعاف ودفاع مدني وسيارات الأهالي الذين هبّوا بدافع النخوة. كان أمامنا جمع من الشباب الذين راحوا يشرحون وهم يبكون ويستغيثون بالله من هول ما أصابهم، الطيران قد ألقى عدة براميل مدمراً الأبنية على رؤوس الناس.

ولكن مشهد الدمار كان هائلاً، عدة أبنية وسط القرية مدمرة بشكل شبه كامل. الدخان يتصاعد من بعض الأماكن. والنار مازالت تضطرمفي أماكن أخرى، وصراخ البعض يتعالى وخاصة من النسوة والأطفال وتكبير الرجال. الكثير من الجمل (دخيل الله راحوا أولادي)، (الله أكبر عليك يا بشار)، (تعالوا هون شباب)، (بسرعة طفوا النار)، (يا ربي دخيلك وينك يا بو). (يا الله ... يا الله)، (هاد بيت أبو عبدو كلهم تحت الردم)، (لك شيلوا بسرعة)، (يا إسعاف بسرعة كرمال الله)، (يا ربي دخيلك شو عبصير)، والناس يركضون هنا وهنا، الكل يحاول أن يفعل ما بإمكانه.

أما أنا فكنت في حالة إرباك شديدة، النظام يراقبني من مكان ما، وعلي أن أنفذ أوامره، وربما يغتالني وينهي حياتي في أي لحظة، ولكن هؤلاء الناس من حولي، بين ميتٍ ومهدد بالموت. مغريات الضابط لي بأني سأكون

شيئاً مهماً إن نجحت. الرغبة في حياةٍ سعيدة. وهذه الجثث أمامي ومشاهد الدمار. تساءلت في نفسي: أيّ الطريقين أفضل؟!

ماذا سأفقد أنا، وأنا مع من؟!

هل أتركهم.. هل أمضي في شأني؟!

هل أهرب ولكن أين أهرب وممن أهرب؟!

لا بد أن أمضي معهم وأساعدهم اليوم على أقل تقدير.

– خالد: أحمد.. أشو فيك... يلا تعال ساعدنا

– أجبت: يلا جاي ... (كأني كنت أنتظر التشجيع هذا لأنطلق معهم).

أسرعنا كما الكل نحاول قدر استطاعتنا، وأنا لا أعرف ما أفعل إلا أنّ خالداً سحبني معه بسرعة إلى مكان مهدم، وبدأنا نحاول رفع الأنقاض بأيدينا وبآلات بسيطة، الجثث والجرحى والمصابين منظر يدمي الصخر، صراخ الأطفال والنساء والرجال وبكاؤهم يشعرك بالعجز في كثير من الأحيان.

ونحن نحفر ونزيح الردم كنت أصدم عندما أرى قطعة ثياب، وأتجمد إن رأيت يداً أو رجلاً أو شعراً من رأس. بعض الذين أخرجناهم كانوا أقرب للموت والكثير منهم ميّتين.

أحد الشباب صرخ عالياً: (بهالدار في حدا بصرّخ ... كأنه لسه عايش تعالو بسرعة..)

هرعنا إليه. كان البيت كومة من الركام، صوت امرأة من تحت الأرض: (يا الله دخيلك ... أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..... آآآآآه) تجمعنا وقد كُنّا أكثر من عشرة شباب حول مكان الصراخ وكأننا فقدنا القدرة على الحركة. هممنا برفع الأنقاض لنقترب من مصدر الصوت أكثر. رُحنا نزيح الأحجار بما أوتينا من قوة. حاولنا كثيراً، أحدهم أحضر آلة حفر، بدأ يفتت أجزاءً من السقف المهدود، فلا يمكن رفع الكتل الكبيرة باليد. كان يحاول جاهداً قطع الكتل الإسمنتية المشبوكة بالأسلاك الحديدية. أزيز قطع الأسلاك كان يغلب صوت المرأة من تحت الأنقاض، ونحن من حوله نرفع ما استطعنا. أتى رجلٌ آخر بيده آلة أخرى، إلى أن استطاعا تقسيم كل السقف إلى قطعٍ أبعدناها شيئاً فشيئاً، أخيراً وصلنا إلى المرأة بعد جهد كبير. بدأت أصوات التكبير عند رؤيتها. رجلها اليمنى مقطوعة من ساقها، واليسرى تبدو شبه مهروسة من ركبتها إلى أصابعها، والطامة هي تقوّس ظهرها لقد كان مكسوراً نتيجة وقوع السقف، عندما حاولت رفع رأسها كانت تبكي من الألم. وجهها مغطى بالغبار بشكل أخفى ملامحه. إنها شبه ميتة، لكنها تضم شيئاً في حضنها، إنه طفل صغير. أخذ أحد الشباب الطفل من بين يديها وأتينا بناقلة مرضى لنرفعها، إنها شبه ميتة، لقد خسرت نفسها لتنقذ ابنها. ما هذه المرأة. حملناها ولا نعرف

ماذا قد يحدث لها. وهي تنادي: "انتبهو عابني ... كلهم راحوا وما بقي غيره ... الله يخليكم ديرو بالكم (حافظوا) عليه"
ما أروعها من امرأة وما أعظم ما قدمت. أما الطفل الملفوف بحرام صغير وقد تكدّس الغبار عليه، يبدو عمره أقل من شهرين. بكاؤه الشديد، جعل الخوف يتسلل إلينا من جديد، حملته أنا إلى سيارة الإسعاف حيث تناوله مني أحد المسعفين وأدخله إلى السيارة وراحوا يفحصونه، ومن ثم مضت السيارة بسرعة. وقفت أراقبها تبتعد بصوتها عني، تشق طريقها بين حشود الناس، وأرى ملامح الطفل وهو يبكي، وكأنه يقول لي "وداعاً"
تذكرت الآية القرآنية التي يضعها أصحاب الخوذ البيضاء في شعارهم: بسم الله الرحمن الرحيم " وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا" صدق الله العظيم
لحظات بثت في داخلي كل شيء جميل وأحيتني مع هذا الطفل.
وصلت الجرافات وبدأت تحفر في الردم، ونحن نحمل ما نرى ونركض ونسعى. كان الواجب أن ننقذ أي شخص بما أوتينا من قوة وعزم. والجميع كخلية نحل لا تهدأ والكل على قلب رجل واحد، وكثيرٌ منهم كان مفجوعاً بما رأى.
استمرينا في عملنا لساعات طويلة حتى أوشك الليل أن ينتصف لنعود أدراجنا.

لم يكن هناك أي مجال لحمام أو ما شابه فقط غيرت ثيابي ولبست (البيجاما) التي أحضرها لي خالد وغسلت رأسي ويدي ورجلي، ورحت في سبات عميق.

***

أيقظني خالد فجراً، ذهبنا إلى المسجد، من فوري دخلتّ الحمّام، وأمسكت بالهاتف، لأرى العديد من الاتصالات في أوقات مختلفة. وهناك رسائل أيضاً. ورحت أفتحها بهدوء، واحدة تِلوَ الأخرى، وأنا أقرأ التهديدات بدأت أشعر بالخوف، رنين الهاتف كان مفاجأة لي:

- "ألو".
- "وينك ولك جحش".
- "خير سيدي".
- "ليش ما بترد عالهاتف".
- "كان صامت سيدي".
- "حاطه صامت يا حمار ... شو مفكر حالك بنزهة أنت بمهمة".
- "بس سيدي ما ...ما قدرت".

– "أنت مبارح كنت بتمشي بخان شيخون من مكان لمكان..، كيف ما قدرت؟!!".

– "سيدي صحيح مشيت بس مو كرمال المهمة".

– "شو يا حبيبي ... تكون مفكِّر(تعتقد) حالك مهم.. أو صرت مع الإرهابيين".

– "سيدي هم مش إرهابيين".

– "ولك اخرس ولك كلب ... احكيلي وين اكتر شي في تجمعات".

– "سيدي ما بعرف".

– "شوف وحياة اللي خلقك بخليك تتمنى الموت وما تلاقيه، ولا نسيت حضرتك مين نحن؟!!".

– "سيدي ما بقدر".

– "بدك تقدر غصباً عن اللي خلـ...ك".

هنا تجرأت وأغلقت الهاتف عندما سمعت كفره، الجملة الأخيرة التي تجرأ فيها على الله جعلتني أشعر أن لا قيمة لأحد عندهم ، الكل عبيدٌ وخدم، وربما علي أن أقدم لهم المعلومات وتتم تصفيتي بعد فترة، هذا إن لم أمت تحت القصف، ومن ذا الذي يهتم لأمري، كما زميلي الذي أصبح قائد كتيبة، فما هو إلا أداة في يد النظام، يسيء للثورة ويساعد في حرفها عن مسارها، وأمام العالم هو ضد النظام وينسب إلى الإسلام ليمارس بطشه

باسم الدين أو باسم الثورة وهو في الأصل أداة خطيرة في يد المجرمين له دوره الرسوم، لن أكون أداة بيد أحد، أنا مع الشعب، مع الذين رحبوا بي وأكرموني، القرار كان صعباً ولكنه صائب .

خرجت لأصدم بخالد على باب الحمام. إنها أكبر صدمة يمكن أن تمر بي، خالد الذي يشعر بأني غدرت به ولم أكن على قدر الثقة التي منحني إياها، نظر إليَّ بغضب شديد:

– "أشو في، ومع مين عبتحكي".

– "أنا ... لا ... ما ... ما ... ما بحكي مع حدا". (بارتباك وتلعثم وقد تغير وجهي).

– "مع مين عبتحكي" (بغضب).

– "صدقني ما بحكي مع حدا".

– "لك أشو صدقك ما صدقك.. أنا سمعت المكالمة".

– "خلص بعد ما نصلي بحكيلك".

– "أشو ... بعد ما تصلي ... ليش اللي متلك بتقبل صلاتهم".

– "أخي خالد ما تحكي هيك"

– "بلا أخي بلا بطيخ".

جرني من كنزتي وأسندني إلى الجدار وضغط على عنقي بقوة، وقال: "أنت شبّيح؟؟!!".

– "لا .... أستغفر الله ... مستحيل".
– "أشو جاي تعمل عنا".
– "هربان منهم".
– "ومع مين عبتحكي". (قالها وقد أخرج مسدسه ووضعه على عنقي).
– "بحكيلك".
– "طيب .... امشي قدامي".

مشينا ضمن باحة المسجد أمتار قليلة إلى أن وصلنا المئذنة شبه المهدمة فدخلنا إليها، كان في أرضها قطع من الطوب المكسر والردم أيضاً، ضربني برجله أسف بطني وما إن وضعت يدي مكان الضربة حتى انهال عليّ ضرباً إلى أن وقعت أرضاً.

– خالد:"انت واحد خاين وشبيح .... الموت قليل عليك يا حقير".
– قلت:" الله يخليك أخي خالد والله أنا مش معهم".
– خالد:" مش معهم يا كلب.. احكي مين بعتك.. أي فرع واي ضابط.. قبل ما فرّغ هالمسدس براسك واعتبر حالك كلب وفطست".
– قلت:" حاضر رح احكي ... بس بدون مسدس".
– خالد:" وبدك تتشرط عليّ يا شبيح ... احكي قبل ما أفجر لك هالمخ".
– قلت: " حاضر رح احكي ".

***

في منتصف ليلة حارة قبل أكثر من سنة، كنت حينها مستلقياً على سريري أصارع حرّ الصيف محاولاً في عتمة الليل بالمروحة الورقية أن أحرّك الهواء الساكن. الكهرباء مقطوعة، فأصبحت تحضر قليلاً وتغيب ساعات كثيرة، وحده ضوء القمر في سماء تموز الصافية يترك أثره على الأشياء المحيطة من جدران وشباك وسرير وطاولة وكتب، قُرِع الباب بشدة، أصابني بخوف شديد وذهول.

من الذي يقتحم عليَّ عزلتي؟!

هل هم من الأمن أم من المعارضة جاؤوا ليختبئوا عندي؟!

زاد الطرق على الباب، كتمت أنفاسي لأقل من خمس ثوانٍ.

لا بد أن أفتح. نهضت ومشيت متجهاً إلى باب البيت وأنا أرتعد خوفاً. عندما فتحت الباب، مدّ أحد العناصر يديه وجرّني خارج البيت من كتفي بقسوة. تلقيتُ ضربةً بقبضة اليد على حنكي الأيمن. أحسست أنه كُسر. ثم الأيسر، وركلتان على جسدي من الأسفل، كان ذلك كفيلاً بإسكاتي.

جرّوني معهم على درج البناية بشدة وقسوة، وأنا أرتدي (بيجاما) داخلية بيتيّة بيضاء رقيقة لا تقي من برد ولا شيء، لا يمكن أن يخرج بها من بيته إلا مجنون. ولكن الركل بالأرجل والضرب بالهراوات وأحياناً بأخمص

البنادق كفيلٌ بجرّك عارياً، مضيتُ معهم بعد مقاومة لا جدوى منها. في الصندوق الخلفي للسيارة رحت أتفحّص كل شيء. للوهلة الأولى أدركت حجم الحقد في عيون العناصر الأربعة المحيطين بي، ومن حسن الحظ أن الضابط مع السائق في الأمام. العناصر الأربعة لا يزيد عمر أكبرهم عن أربعة وعشرين عاماً وهذا ما يترك الباب مفتوحاً للتمحيص ولقراءة ما يمكنهم فِعْله، فمحاولتهم إظهار رباطة الجأش والصلابة، وشيء من الجهل أو قلة المعرفة أو العبودية أو ربما القهر المبطن، تطرح ألف سؤال وسؤال.

***

فلا يمكن لأي شخص حرٍّ أن يحاول إخفاء ذلك، فالحر لا يحتمل العبودية في الأصل، فما أغرب إجاباتهم عن السبب، وعن مكان اقتيادي إليه.
هل كان خوفهم مني أم من القادة الأعلى منهم رتبة؟
أم من مصير مشابه؟
كل هذا وأكثر يمكن قراءته في وجه عسكري نظامي خلال هذه الثورة. أما اللباس فلم يكن بالشكل التقليدي والموحد إنما يبدو وكأن القيادة تركت للجميع الحرية في ذلك. المهم أداء الواجب بالشكل المطلوب.

ومع هذا كله لم يكن بمقدوري معرفة أدنى معلومة عن مكان اقتيادي لا من العناصر ولا من الطريق، إنّما الشيء الوحيد الذي أدركته أنهم من النظام. وهذا ما يجعل الأمر أكثر سوءاً وخطورة. فحسب ما كنت أسمعه خلال سنوات الثورة من أصدقائي أو من الناس الذين قضى أقرباؤهم في المعتقلات أنت ميت أو رقم حتى تموت.

وكم سمعت عن حالات يكون فيها اثنان تربطهم قرابة أو صداقة في سجن واحد ولا يعرف أحدهما الآخر، لأن لكل معتقل سجّانُه وجلّاده الخاص.

قبل دخول الفرع بقليل قام أحد العناصر بوضع قماشة على عينيَّ بعد أن فتح الضابط النافذة الصغيرة في السيارة. وقال بلؤم شديد: "طمشوه لها لبغل طمشوه".

ليرد ثلاثة منهم: حاضر سيدي.

طريقة كلام الضابط وعنجهيته ورد العناصر معاً يجعلك ترى الواقع الذي نعيشه منذ عشرات السنين دون وعيّ أو انتباه. ولكن ماذا عن الرابع، ولماذا لم يجب؟!

***

أنزلوني مغطى العينين بقوة إلى الفرع. وهنا بدأت أدرك أننا نصعد درجاً، ثم لربّما نمضي في ممرٍ طويل فيه شيء من الهدوء. لا أبداً، لم يكن هدوءاً، كان أنيناً يأتي من آخر الممر على مايبدو. بدأ الخوف يعصف بي وهم يجرّونني في الاتّجاه نفسه. يا إلهي فُتِح لنا باب حسب ما سمعت. بدأ الصوت يعلو وأنا أنزل درج إلى الأسفل، كلّما نزلت أكثر علت أصوات الأنين، ليس أنين رجل واحد. إنما كُثُر.

إلى أين يا أحمد تساق هكذا؟!

تذكّرت أني سألت نفسي ذلك السؤال مرّات عديدة.

يا ليتني كنت ذهبت مع أهلي أو مع أخَوَيَّ. هل هذا جزاء حب الوطن؟!

***

لم أكن يوماً لأفكر في أن أصبح مع فئةٍ ما. وفي الوقت نسفه أرفض أن أُعْطَى صفة لاجىء في أي بلد في العلم.

يا إلهي يبدو أن لكل شيء ضريبته. ولربما في وطننا ضريبة البقاء هي الذل أو العناء.

ما أطول هذا الدرج؟!

أكاد أحس أن كل درجة فيه طلقة تخترق صدري. حتى خطواتي وخطوات العناصر الذين يجرونني أصبحت مخيفة.

إلى أين يمضون بي؟!

ترى كم عنصر يحيط بي؟!

وكم عنصر ينتظرني؟!

كانت أساليب التعذيب قبل الثورة تعتمد الدولاب وبساط الريح حسب روايات المعتقلين القدامى، فكيف تطوّر الحال الآن؟!

يا إلهي هل ستدخل التكنولوجيا في التعذيب. لاشكّ أن ما كان في الماضي كان تقليدياً جداً، واليوم لا أدري.

المشكلة في الأجهزة الأمنية عندنا أنها لاتقتل فوراً، بل يصبح الموت أمنية لكل معتقل.

ربّاه نحن شعب نعيش على الأمنيات، أمنياتنا كثيرة، في المدرسة النجاح.. في الجامعة التخرج.. بعد التخرج مشتتة: أحياناً السفر.. وأحياناً الزواج... كثيرة بالفعل.... نسيت، حتى في العسكرية (الخدمة الإلزامية) كنت أتمنى أن أطلق طلقة واحدة، طلقة واحدة فقط، ولو كانت خُلّبية تجاه الصهاينة القابعين فوق أرضنا العربية، وربما كانت هذه أمنية كل سوري ذلك وكلّ عربي حرّ أصيل.

حتى أمي دعت لي بذلك يوم التحقت بالجيش.

يا اااااه..، من سيخبر أمّي بمكاني الآن؟!
وأنا الذي لا أعرف مكاني.
لم أعد بالفعل أقوى على المُضيّ، أظنّنا وصلنا باطن الأرض، أو قعر جهنم.
ها قد انتهى الدرج على ما يبدو. الأصوات قريبة جداً والنشيج صادر عن أشخاص كأنهم يرفضون الموت. لكني لم أسمع أصوات التعذيب حينها.
بدأت أفكر في كل هذا وأتساءل أين التعذيب إذن؟!
يبدو أننا وصلنا. صوتُ فتحِ الباب أخرس تفكيري، فُكّوا القيد عن يديّ، ورموا بي إلى الداخل. ارتطمت بالحائط، وقعت أرضاً.
يا إلهي الغرفة تبدو صغيرة جداً. أغلقوا الباب. هدوء شديد، والرائحة نتنة وقبيحة.
أين أنا؟!
مرّت لحظات لم أحتمل فيها أي شيء، وحتى أني لم أعد أقوى على التنفس، رائحة قذرة مقرفة. حرّكت يدَيّ بعد أن أحسست بحريتهما من القيود، تلمست الأرض، أمسكت حينها شيئاً لم أتوقع أن يكون كذلك إلا عندما قربته من أنفي. إنها قذارة صلبة بالفعل، رميتها، أمطت اللثام عن عيني.
ربّاه أين أنا؟!

ما رأيت مثل هذا المشهد في حياتي أبداً، إنه مرحاض بالفعل. مرحاض لم تدخله قطرة ماء أبداً. من المستحيل لعقل بشري أن يتوقع هذا، مرحاض جدرانه مهترئة جداً. رطوبته ظاهرة في كل مكان. أرضه فيها من الأتربة المتساقطة ومن القذارة ما هو كفيل بتدنيس مدينة كاملة. حتى الباب الخشبي قد مُلئ قذارةً مرسومة بأصابع اليد.

فوق الباب، في أعلى الجدار هناك فتحة صغيرة ضيقة يعبر منها بصيص نور لا يكاد يلاحظ، ربما هذا الأمل الوحيد بحياة وما أتعسها من حياة.

أفكار كثيرة راحت تتصارع في رأسي وأنا غاضب، ولكن لاحول لي ولا قوة.

ترى هل تقبل دعوتي هنا في هذا المكان القذر؟!

هل يمكن أن يتواجد هنا مَلَكٌ يحمل دعوتي إلى الله؟!

هل ستخرج دعوتي إلى الله من بين كل هذه القذارة؟!

وهل الإنتحار حرام في مثل هذا المكان؟!

بطيئاً مضى الوقت وما من فكرة إلا وفعلت فعلها في رأسي. يبدو أنني غفوت قليلاً. فجأة صحوت حين سقطت قطرة ماء على وجهي. صحوت مذعوراً ولكن لا أحد حولي. رفعت حينها رأسي لأكتشف أنها من الأعلى. حمدت الله فهناك فتحة للنور، وهناك ماء بالرغم من ندرته؛ لكنه يعطي الأمل بالحياة أيضاً.

ورحت أتأمّل السقف وأنتظر حتى تتجمع نقطة أخرى؛ لأستقبلها بفمي لأني أحس بالعطش أو الجوع، أو لا أحس بشيء. ولكن لأن الماء هو الحياة أردت أن ألتقطه بفمي. طويلاً انتظرت طويلاً جداً، **فجأة سمعت صوت أقدام عناصر قادمين، فتحوا الباب بقوة وبدؤوا يصرخون بي.**

شدوني بقوة من مكاني وكأن قبضاتهم تعصرني عصراً من حيث يمسكون بي ... حملوني ووضعوني على الكرسي وسط القاعة. بدأ الضرب على وجهي وهم يأمرونني بالاعتراف لأي فصيل أتبع وإلى أي دولة غير سورية. وأنا أقسم لهم بأني لا أعرف شيئاً. رفعوني للأعلى بينما كان اثنان منهم يمسكان بي كلٌ من جهة بقوة. بدأ الضابط يضربني بيديه ورجليه بكل قسوة، حتى أجهز عليَّ بضربة على رأسي. وقعت أرضاً مغشياً عليّ. فقال لهم: صَحّوه لهالحمار صحوه.

أحدهم أمسك دلو ماء ورشقني بالماء كله، جفلت وصحوت.

يا إلهي لم يكن سوى كابوس مزعج، وهذه قطرة الماء التي انتظرتها طويلاً. سقطت على عيني في نومي.

لا أعرف كم من السنوات عشتها في تلك الليلة أو المشاهد والتوقعات التي ظننت أني سألاقيها. وحده الصباح كان سيكشف الحقيقة واضحة حول لمصيري الذي ربما من المستحيل توقعه.

***

في الصباح فُتِحَ الباب، ليظهر أمامي ثلاثة عناصر قاموا بوضع يديّ خلف ظهري وتقييدهما، ثمّ وضعوا ملصقاً على فمي بقوة بالرغم من محاولتي المقاومة، إلا أني لم أفلح تحت ضرباتهم وركلاتهم حيث اقتادوني.
بدأ مشهد الغيب ليلة دخولي أمس يتضح أمامي فهناك بعض الأقفاص الصغيرة تضم معتقلين. كنت كلما نظرت في عين معتقل أحسسته يقول لي: الله يرحمك.
وكأنه متأكد من نهايتي أو أن ما سألاقيه كالموت أو أشد قسوة. لكن شيئاً ما جعل أفواههم لا تنطق أبداً. وأنا أمضي رغماً عني وما بين الحركة والحركة ضربة أو ركلة. فجأة سمعت صوتاً: لا إله إلا الله ... لا إله إلا الله.
نظرت عن يساري، يبدو رجلاً كبير السن بذقن اشتعل فيها الشيب. لم أدرك حينها ماذا يعني للوهلة الأولى. كنت سأبتسم، غير أن دموعي بدأت تنهمر بحرقة. ارتفعت الأصوات من جهات عديدة: لا إله إلا الله ...لا إله إلا الله.
أردت أن أصرخ معهم إلا أن اللّاصق على فمي حال دون ذلك. حاولت بقوة: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله ....

وما كان لصوتي أن يخرج سوى كأنين من خلف حجاب. هذا الحدث جعلني أدرك تماماً أنها النهاية. وأني ماضٍ بقدميّ إليها رغماً عني. تجاوزنا الأقفاص وبدأت الأصوات تخفت أكثر فأكثر.

هنا بدأت أشعر بالوحدة، بساعة الموت. إنّه الأجل الذي لا مفرّ منه. عندما وصلنا فتحوا باباً ضخماً، وبشدة جرّوني إلى الداخل.

إضاءة خافتة، رائحة نتنة، وكأن بحراً من الدماء جرى هنا والرطوبة العالية تملأ المكان. كل المشهد يبدو عاديًّا، إلا أنّ كثرة العناصر هو ما يسقط القلب بين الرجلين. قام بعضهم بصلبي على الجدار بقسوة.

يداي أعلى من كتفي، ورجلاي مفتوحتان بشكل لا يريحني، إنما لا مجال للمقاومة. بدأت أشعر بالخوف الشديد. دقائق كثيرة مرّت وأنا أترقب ولا أحد يفعل شيئاً حتى أني لم أُضْرَب. ولكن هذه لحظة تستجمع فيها الجدار على جسدك يتلون بلونك ينبض بنبضك يتأوّه معك كل مسماةٍ منه مسافة موت ونهاية لك.

لهجات العناصر تدل على اختلاف مناطقهم فلماذا كلهم يدافعون عن المجرم ويجرمون بحقنا نحن أبناء البلد؟!

ألسنا مواطنين مثلهم؟!

أليس لهم أقارب ضد النظام المجرم؟!

أين العقل؟! هل السوط فوق رؤسهم جميعاً، أم أنهم مارسوا العبودية حتى أصبحت عادة عندهم؟!

فجأة سكت الجميع دخل ضابط كبير وضخم، ذو كرش بارز، بزّته العسكرية أكثر أناقة من العناصر، حليق الذقن والشارب، يضع قبعة عسكرية على رأسه.

العناصر: احترامي سيدي. (مع التحية العسكرية).

خلع عن رأسه قبعته أعطاها لأحد العناصر الذي هرع إليه.

نظر إليَّ بكل لؤم:

"أهلا أستاذ أحمد، كيف النومة؟".

أجبت بخوف وهدوء:

"منيحة".

الضابط:

"منيحة.. قرد شو منيحة ما منيحة. هي أحسن من مخيم أخوك بألمانيا، وأحسن من مخيم أمك بالأردن. ولك جحش شو مفكرنا هون قاعدين منعمل. نحن ضيافتنا أحسن من العالم كله.. أنتو بس شرفونا وشوفو".

لم أرد بأي كلمة.

تابع الضابط:

"قرد ماعجبك الكلام. يجعل.. فيك يا كلب".

وانهال عليّ ضرباً بكفيه الضخمتين، كلما صفعني من جهة كنت أشعر أن رأسي سيطير إلى الاتجاه الآخر.

عشر صفعاتٍ أو أكثر بكل حقد وكراهية. بدأ الدم يسيل من فمي وأوشكت على الإنهيار. فجأة توقف.

بدأ يربّت على كتفي اليسار بيده ويقول:

"منعتذر منك يا أستاذ هاي أصول الضيافة، ما حكيتلي شو في عندك تحكيه".

أجبت:

" مثل شو سيدي. أنا ما عندي شي".

الضابط:

"ولك يا جحش آبِدَكْ تحكي عن رفقاتك الإرهابين و وين هنن".

أجبت:

"ياسيدي مابعرف شي والله مالي علاقة بحدا. أنا بشغلي بس".

الضابط:

"بشغلك ولاك كلب! ... رح شوف بشغلك ولا لاء".

وضربني بقبضة يده على كتفي من الأمام، لا أعرف كم مرة إلا أني أحسست أن كتفي خُلِعَت مني والتصق بالجدار، في البداية كادت تنكسر ولكنها تخدّرت وأسكرني ألمه فلم أعد أشعر به.

أدار ظهره عني، وبسرعة البرق أخرج أحد العناصر له سيجارة وأشعلها. استنشق الدخان ونفخ كثيراً.

ثم التفت إليّ، وقد اقترب مني جداً، وقال:

"آبتدخّن؟!".

أحمد:

" لا سيدي.. الحمد لله ما بدخن".

الضابط:

"حلو كثير ولد مرضي أنت ....، ومشان تكون مرضي أكتر لازم تحكي وأنا بساعدك".

أحمد:

"شو أحكي سيدي".

الضابط:

"أحكي كل شي عن رفقاتك الإرهابين الكلاب".

أحمد:

"سيدي والله ما بعرف شي عنهم".

الضابط:

"ولك بدك تعرف غصباً عن ر.....ك".

قالها بغضب شديد، وقد أمسك السيجارة وأطفأها في رقبتي أوشكت أن أصرخ عندها؛ لكني كتمت أنفاسي مع أن وجهي بدا أحمراً مختنقاً.
ابتعد عني قليلاً، وقال لاثنين من العناصر:
"تعال أنت ويّاه".
بسرعة جاءا إليه:
"حاضر سيدي".
الضابط:
"ايمتى جيتو لهون؟!".
أحد العناصر:
"من أسبوع سيدي".
الضابط:
"أهلا وسهلا. اليوم يومكم. وَرْجُوني (أروني) رجولتكم بها الكُر. يلا لشوف".

***

اقترب العنصران مني. شمّرا عن سواعدهما، وبكل حقد بدأ الضرب ينهال عليَّ من كلّ الجهات، أما الضابط فقد أشعل سيجارة أخرى وهو ينظر إليّ وفي وجهه غيظٌ وكره، لا أعرف كم من الوقت احتاجا لضربي وتعذيبي

حتى انهرت. لم أعد أحس بألم. وربما شدة الألم وكثرة مواضعه أصابت جسمي بالخدر. عاد الجدار يتلمسني من جديد ليشعرَ ببعض السخونة – التي تقض مضجع رطوبته وظلمته المكره عليها – من وهج رضوضي.
جفلتُ لأدرك أني رُشِقْتُ بسطل ماء. نظرتُ إلى جسمي. ثيابي ممزقة والدماء تسيل من أماكن عدة.
اقترب الضابط مني. وقال: واللي خلقك هدا لسه ضيافة بس لعيون أمّك، ورح تشوف يا جحش.
في هذه اللحظات ربما كان من الطبيعي أن أشعر بقهرٍ لا يمكن أن يوصف، وتمنيت لو أني القبو كلّه لأطبقَ عليهم جميعاً بألمي وغضبي.

***

أنا هنا في وطن يشبه وطني، وفي قبضة أشخاص أقل ما يقال عنهم أنهم في الوطن نفسه، ويحملون الجنسية نفسها. المفارقة الكبرى أن نكون معاً في مكانٍ واحدٍ ولسنا معاً. أن نعيش معاً لنقتل بعضنا بعضاً. لماذا لا يتّسع هذا الوطن للجميع؟!
إن كنّا نلتقي لنموت فهل علينا أن نفترق لنعيش؟!

***

أربعة من العناصر ظلوا في القبو بعد مغادرة الضابط رفقة الآخرين، خطر ببالي أن أسألهم عن مستوياتهم التعليميّة. ابتسمت قليلاً، وقلت في نفسي: "إن كان رئيسهم دكتور في الإجرام البشري (أقصد في الطب البشري) فما عساني أنتظر من جنوده أن يكونوا"؟!

منهم من رأى ابتسامتي، لا أعرف كيف نظر إليّ، إلا أنّي أحسستُ بالانتصار عليهم جميعاً. في لحظة تجرأت فيها وقلت في نفسي وأقررت أن رئيسهم مجرم، فانتصرت على رئيسهم و على عصابته كلها، ولكن من سيعترف لي بهذا النصر؟. لا شك أن لا أحد سيقرّ لي به في زمن الطغيان هذا.

عندما بدأ الخدر يتلاشى من جسدي بدأت أستعيد ما تبقى لي من وعيٍ وراح الألم يشتعل في جسدي معلناً حرباً ضروساً على أحاسيسي. رحت أنظر إلى جسمي قدرَ ما أستطيع أن أرى. يا إلهي ماذا لو صدق الضابط، بقوله أن هذا ماهو إلا ضيافة.

فماذا عن غير الضيافة؟!

بين الخوف والألم والجوع والعطش مرّ يوم كامل بنهاره وليله، تبدّل العناصر في أربع نوبات، إلى أن عاد إليّ من أشرف على تعذيبي صباح أمس منهم، وأنا مازلت مصلوباً على الجدار بدمي ورضوضي وثيابي

الممزقة، وكأنني على موعد مع هذه الوجوه القبيحة المغسولة ببول الشياطين. أراهم أشباحاً مرعبة متوحّشة، أجساماً متحجرة، أفواههم تفوح بالحقد لكنّها ممنوعة من الكلام أبداً، فقط هم خُشُبٌ مُسنّدة، الصمت يخيّم على المكان فيلبسه رهبة الخوف، الغريب في الأمر أن أحداً لم يكلّمني منذ خروج الضابط، ولم أُسأل أي شيء.

أفكار غريبة رهيبة وجنون وشطط وأنا بين الصحو والغفو، أوه..، يا إلهي أصابعي تتحرك حاولتُ تجربتها كلّها، متعة رائعة أن أستعيد شيئاً من شخصيّتي بالملامسة، بحركات بطيئة ببطء الزمان المحيط بي، شعرت بخشونة مُتيبّسة على أطراف أكمامي، تأكّدت أنها بقايا الدماء النازفة، تأوّهات تستنزف أعصابي المُتعبة، شعوري بنصري الداخليّ أحالها لراحة، أخذتُ نفَساً عميقاً أسترقه من بين الجنود الأصنام دون درايتهم.

***

حينما أصدر مزلاج باب القبو صريراً أزاح ستارة الصمت قليلاً، جاءت فسحة عابرة أخرجتني من ذهولي، وأنا أقلّب نظري في الوجوه الخشبيّة للحُرّاس، ومحاولاتي الإستقرائية لهم وما يدور في دواخلهم السوداء، كبير العساكر أصدر لي أمراً بأن أستدير بوجهي للحائط، وأرفع يديّ للأعلى.

اقتربتُ كثيراً من الجدار، تراخى جسدي فوجدتُ متعةً كبيرة وأنا أتّكىءُ عليه، سَرت برودة عجيبة في أعصابي تسرّبت عبر التواصل مع الجدار، سابقاً كنت أنظر إليه فأرى فيه حماية للدكتاتور، حاجزاً للأحرار القابعين خلفه يقضون سِنيّ أعمارهم خلفه، ومنهم من لم يخرج من بين أسواره إلّا إلى القبر، أمّا من تبقى فقد خرج بعد عشرين عاماً أو ثلاثين مُحمّلاً بعاهة جسديّة ونفسيّة، في هذه اللحظة لا أدري على وجه الدقّة ما الذي حصل لي من تآلف مفاجئ و مريح، رائحة رطوبة عفنة أسحبها بعمق مع أنفاسي، انتعاش عجيب وكأن دماء جديدة دخلت شراييني، ارتياح تولّد داخلي أخذني بعيداً عن أوجاعي وتأوّهاتي ووقعُ بساطير العساكر وأصوات القادمين الجُدُد.

العساكر الجدد جلبوا معهم رجلاً تجاوز الأربعين من العمر.

حين أبصرته جمدت وجحظت عيناي لمنظره. لم يبق على جسده إلا ما يستر عورته فقط. آثار الضرب والتعذيب والجروح العميقة الممتدة على مساحات واسعة من جسمه المنهك تبدو واضحة. يبدو كالأرض التي قامت عليها ملاحمُ لا تُعدّ ولا تُحصى.

الرجل يبدو أنه لا يقوى على الحركة. وضعوه في منتصف القاعة. ربطوا يديه من مفصَلَي الكفين بحبل، ما هذا الحبل؟!

أحد العناصر في زاوية القاعة شغّل جهازاً (رافعة صغيرة) (بلانكو)، وبدأ شد الحبل، والرجل الأربعيني بدأ يرتفع أعلى فأعلى وهو يصرخ وكأنه يخرج آلام كل السوريين المكبوتة منذ أول القهر، صوته يشقّ ظلام القبو كاسراً رتابة الصمت الإجباريّ.. يصرخ: يا الله.. يا الله...

مشهد سمعتُ وقرأتُ عنه، لكن الحقيقة بالعين المجردة تختلف، لا يمكن أن يصدق، كيف يحدث هذا. أصبح الرجل مشدوداً إلى الأعلى من يديه بما يقارب عشرة سنتيمترات أو أكثر أو أقل لا أعرف. وكأني بجزّار حارتنا أمرّ به وأنا أتأمل تلك الذبائح من الخراف والماعز معلقة بكلاليب لاحياة فيها، يقلّبها كيف يشاء، يقطع بسكّينه الماضية بكل طمأنينة ولا يخشى شيئاً، بينما الأربعيني يترنّح جسده على وقع أنينه الذي يقرع سمعي فيتشقق صدري تألّماً أرثي لحاله، فينقبض قلبي، أغادر متعة التصاقي بالجدار الطارئة، لأدخل في دهاليز الضياع والتشتّت من جديد.

أحسست أن يديه تتمزقان من كتفيه، ليتحرك جسده، ربما سينفلت من بعضه بطريقة مجنونة. الكثير من الصراخ والألم، رأسي بدأ يصرخ لكن فمي مازال مغلقاً باللاصق.

هدأ الرجل قليلاً. كان وجهه باتجاهي لا أعرف إن كان ذلك صدفة أم عن قصد.

آثار التعذيب على صدره واضحة جداً. فخذاه وساقاه يبدوان وكأن سكاكينَ غرزت بهم في مواطن عديدة. رفعت رأسي لأبصر وجهه كان ينظر إليّ، إنه أقوى مني ... عيناه توحيان أنه وحش كاسرٌ قد يغلب سجانيه وجلاديه. لكن وجهه كان مشوّهاً جداً، فالجروح والدماء أخفت الكثير من معالمه. وحدهما عيناه حكاية التحدي في وجه الطغاة. ولربما البحر الذي ابتلع فرعون وجنوده لطغيانهم وجبروتهم.

كم تعذّب هذا الرجل، وكم من مرحلة مرَّ بها حتّى وصل هنا؟

وكأنهم يقولون: لن يخرج من هنا حيٌّ.

فالكلّ مُعذّب حتى يموت.

دخل الضابط وبدون أن يلتفت إليّ أبداً. وقف خلف الرجل نزع سترته العسكريّة فبدا جسمه بالقميص الداخليّ، مفتول العضلات، أمسك جنزيراً ضخم الحلقات بقبضة يده بعد أن لبس قفازاً رياضياً مقصوص الأصابع، وراح يضرب بلؤم وحقد. الرجل يحاول أن يكتم آلامه وأنفاسه؛ إلا أن بركاناً داخله تغلّب عليه.

وفي كل ضربة، أرى الرجل متأثراً بها عبر جسده كلّه جافلاً ورافعاً رأسه. صدقاً كنت أتألم معه، وحتى أنفاسي وانقباض جسدي كان متناغماً معه، كأني أنا من يتلقّى الضربات. في كل ضربة أجفل. الوقت يمرّ ثقيلاً

والضابط لا يكلّ ولا يملّ. يُنقّل الجنزير بين يديه يميناً وشمالاً. والرجل ما زال صابراً حتّى أنه راح يرمقني وكأنه يقول لي: (تعلّم الجَلَد والصبر).
هذا الرجل وبالرغم من كل الضربات والكلام البذيء الذي تلقاه إلا أنه هزم الضابط. نعم توقّف الضابط أخيراً. ولم يسمع من الرجل كلمة آه واحدة.
غير أنّي بدأتُ أقتنع أنّ التُّهَم هي هي بالنسبة للجميع حسبما كان يقول بعض أصحابي، فغالباً أنت خائن وعميل للقوى الغاشمة والأنظمة الامبريالية طالما لا تقبل بالنظام الحاكم. هل أجهزة النظام القمعية عاجزةٌ عن اختراع تُهمٍ جديدة؟!
فمن خلالها يمكن أن تفعل هذه الأجهزة بمن تعتقله ما تشاء. قانون الطوارئ الذي ما زال معمولاً به من سنين طويلة، هو المبرر لأي فعل لدى الأجهزة الأمنية.
احتراق سيجارة الضابط بسرعة وأنفاسه المشتعلة تدلّان على إرهاقه وتعبه. الغريب في الأمر أن الإنسان ينتقم من الجسد محاولاً كسر إرادة إنسان آخر. لكن هنا أثبت هذا الأربعيني أن الإرادة مرتبطة بالروح لا بالجسد. لعله بقيوده كان الحر الوحيد بيننا جميعاً. كان الجبل الذي مهما عصفت به العواصف وضربته الزلازل سيبقى جبلاً. جملة قالها لي والدي في بداية الثورة: (سورية يا ولدي هي إرادة شعب يجب أن يعيش وليست حظيرة حاكم أو غابة تقطنها عصابة)، وأعتقد أن هذا الرجل من الشعب الذي

قصده والدي وهو جزء منه. أو ربما هو وطننا بكل ما فيه من حضارة وتاريخ وعلم وقيم.

***

أن تسمح بحرية التفكير، يعني أن تسمح بالمسار الحقيقي للتطور، وأن تمنعها، فأنت تراوح بين التجمّد والجليد ليبقى البلد في حالة الصفر الصفر أو أقلّ من ذلك. نظرت إلى الرجل، قابلني بابتسامة وكأنه كان يقرأ أفكاري، ويقول: أصبت يا أحمد.

وقف الضابط أمامه وأصبح يُهدّده: إن لم يعترف فسيموت بأبشع الطرق، إلا أن الرجل لم يجب بل بصق في وجه الضابط مما أصاب الأخير بالجنون.

وهنا طلب من أحد العناصر أن يأتي بعصا الشفرات، ولمّا أحضرها العنصر كانت من الخشب تتجاوز المتر طولاً، يغطيها جلد حيث يمسكها العنصر ومن منتصفها حتى الطرف الآخر شفرات مغروسة ومثبتة بها.

– قال الضابط للعنصر: "كل عشر ضربات بتنام مع وحدة من الإرهابيّات (المعتقلات من النساء)".

أُعْجب العنصر بالوعد، وأقبل نحو الرجل من الخلف رفع يده إلى الأعلى والخلف، وأنا متجمد وغير مصدق لما سيجري ... بدأت يده تتحرك وأنا أتوقع شيئاً مجنوناً سيحدث. ما إن لامست ظهر الرجل حتى صرخ: آآآه ... يا الله...

الصوت هزّ القاعة كلّها لقد صُدِمتُ بالفعل من الضربة ومن الصرخة. حتّى العنصر جمد في مكانه وهو ذاهلٌ.

نظر إليه الضابط.

– وقال: "شو حبيبي جمدت ولك شو صارلك...، هي الإرهابيات بدهم رجال مش خروء".

– رد العنصر: "سيدي، وأنا رِجّال".

– الضابط: "يللا ورجينا عضلاتك إوْلُو قرد".

لم أكن أتوقع أن يستمر العنصر بذلك، ما الذي يجبره على فعل كهذا؟!

هل الجنس إحدى أدوات أنظمة القمع ؟!، جنس الترغيب لاستمالة العناصر.

ثم لماذا لم يقم الضابط بذلك. لماذا لم يضربه هو؟

لماذا طلب من العنصر؟

عشر ضربات متتالية والرجل يصرخ بشدة حتى زلزلت صرخاته أركان السجن كلّه. والدماء تسيل مدراراً.

عندما انتهى العنصر كان يرجف بالفعل. ولكنّ الضابط اقترب منه وربّتَ على كتفه.

– وقال: إيه..، والإمامُ عَلي انت واحد ازكرت...، الليلة رح تنام مع أحلى إرهابية وتحت العشرين.. فرفورة صغيرة.. ما حدا لمسها غيري.

– ردّ العنصر، وكأنه حقّق النصر، ونال المكافأة: "الله يخليلنا إياكم سيدي... نحن بدونكم ما بنسوى شي".

عندما سمعت ما سمعت أصابتني صاعقة من رأسي حتى قدمي. كم من جريمة فيما قاله الضابط وما قاله العنصر.

الجُمَل التي أطلقها الضابط أنستني حتى الرجل الأربعيني، وهو يصارع الموت. متى أصبحت الحرائر إرهابيّات، متى؟!

وعندما يقول: تحت العشرين فهي صغيرة. والصاعقة أن لا أحد لمسها غيره. يا إلهي كيف يحدث كل هذا؟

ما هذه العقليّة الحاقدة الشيطانية التي نُحكَم بها. وعلى أي أساس تنتهك الأعراض ولماذا؟!

أين التهم؟!

ما الذنب الذي اقترفته فتاة بِكرٌ؛ لتعتقل وينتهك عرضها في أقبية المعتقلات...، وتحت أيّ مُسمّى، وأي شعار، وأيّة جرأة يحدث ما يحدث. كل هذا من أجل الكرسي؟!

***

رحت أتخيل شكل الفتاة الحرة، وكيف ينقضّ عليها هذا الوحش مفترساً عفتها وطهارتها. كلّما نفث الدخان من فمه كنت أنظر إليه لأرى أنيابه، بالرغم من قُبح حضوره إلا أن الفضول تملكني لأدرك حجمها، لكنه يبدو أقبح بغلاظتها وصفارها الغامق النتن. أريد بالفعل أن أقتصّ منه لكني لا أستطيع الحركة. أما هو فقد كان يتأمل الرجل الأربعيني وهو ينزف بغزارة شديدة، وقد بدأ يفقد وعيه أو ربما لا لا ... لا سمح الله، أتمنى أن يبقى هذا الرجل أقوى منهم جميعاً.

أما العنصر القبيح فقد كان مثل القطة يريد أن يرى ويلمس دلال ضابطه القذر. وكأنه ينتظر أن يرسله إلى الفتاة.

حتى جملته للضابط: (الله يخليلنا إياكم سيدي، نحن بدونكم ما نسوى شي).

جعلتني أسأل نفسي: "كيف للرجل أن يجعل من نفسه عبداً بكل هذه البساطة. إنها سلسلة العبيد، والعبد قيمته بعبوديته وسلطة حاكمه يضرب بسوطه وسيفه، ولا قيمة لعبد من دون سيده، غير أنهم لم يتعلموا أن الكبير قد يُضحّي بالكثير من الصغار لضمان بقائه. ثم كيف لهذا العنصر الأخرق أن يقبل بفتاة كانت مع قائده؟".

إنهم بالفعل يتقاسموننا كما تتقاسم الحيوانات المفترسة فرائسها من غزلان وأرانب وخراف لكل نصيبه، ولكن أليس هذا عجزٌ منا، أم هوان وذل؟
كيف لنا أن نسمح بذلك، أين الرجال؟!

***

عصابة الحكم هذه تقود الجميع نحو آتون الموت، ما لم تكن حملاً مطيعاً، فالاعتقال والبطش والإهانة للشعب هو ما يبقيها، نعم. والأمان لا يمكن أن يحدث بين مغتصب وصاحب حق.
في كل العالم الشعب هو الحاكم يأتي برئيس ويطيح بآخر. يأتي بحكومة ويطيح بأخرى. إلا عندنا يأتي الرئيس على الدبابة ولا يزاح إلا تحت الدبابة.
ولكن كم سندفع من الحرائر والرجال حتى تمرّ المجنزرات والآليات على جسده النتن؟
– يا إلهي هذا الرجل يموت. لقد أغمي عليه.
– الضابط: "نَزّلوه.. وجيبو الدكتور".
فأنزلوه أرضاً. كان قد غاب كلّياً عن الوعي. دخل شابٌ في الثلاثين من عمره يلبس سترة بيضاء، تبدو عليه مظاهر الترف والأناقة. هل هذا دليل إنسانيّته، أم ثوب جديد من أثواب الحقد واللؤم والإجرام؟
هل يمكن أن يصبح الطبيب جزاراً؟!

فما بال قسم أبقراط أصبح في عقول عفنة، ولم تعد الألوان تعني نفسها، فلا الأحمر يعني شهادة ولا الأخضر ربيعاً ولا الأبيض طيبة.

نظر إلى الرجل اقترب منه جلس القرفصاء. تفحّص جراحه. قَلَبَهُ على ظهره. حرّك رأس الرجل يميناً وشمالاً، تفحّص عينيه.. نبضه من رقبته. ثم من يده. نهض وقف أمام الضابط وهو يمضغ العلكة. أخرجها من فمه.

– وقال: "سيدي هيْدا الإرهابي إصلاحه رح يكلف الدولة كتير، ونحن مانّا بحاجة له....، أنا شايف أنه حاول يهرب فوقع على أسلاك شائكة وصابوا نزيف داخلي وجروح خطيرة، ولما وصلوا عنده كان صفى دمه ومات على السور الخارجي للسجن... هيك التقرير الطبي".

– الضابط: "ولك منين جايب هالفهلويّة. شايف كيف النسوان بفيدوكن..، يخرب بيتك شو حربوء وابن كلب".

– الطبيب: "ترابيتكم سيدي".

– الضابط: "أكتب هالتقرير، وابعتوا لسيادة العميد. يلا شباب شيلوا هالكلب الفاطس".

هذا المشهد أمامي أبكاني بشدة. أين نحن ماهذا الإجرام، وكيف يحدث، ألهذه الدرجة رخصت أرواحنا وأعراضنا وأصبح موتنا هيّنًا؟

كدت أنفجر، حاولت بشدة أن أخرج من قيودي، ولكن لا مجال لذلك.

بعد أن أخرجوه وأنا أبكي عليه وعلى حالي وعلى كل معتقل ومعتقلة. اقترب مني الضابط.

– وقال: "هدا الجحش بدّو يسافر ؛ فبعتناه رحلة فضائية. لأنه بدوخ بالسيارة هيك مارح يدوخ والحفلة هي بتعرف شو اسمها".

لم أستطع الرد أبداً، وحتى اللاصق مازال على فمي أيضاً.

– تابع الضابط: "هي اسمها توديعة.. واحد بودع العزوبية... واحد بودع أهله...، وكتير كتير وهدا بودع السجن، ونحن نقول إن شاء الله قمنا بالواجب وعملناله حفلة مرتبة..... وهي الحفلة آخر مرحلة... يعني كل إرهابي بدخل هون عندو كتير مراحل كلما اجتاز مرحلة بنتقل للي بعدها ... وهدا الحيوان وصل للمرحلة النهائية بعدما اجتاز كل المراحل بجحشنته. نحن صرنا نفهم أن زيادة المراحل دلالة على زيادة الحيونة والحمرنة عند الإرهابي، يعني عند رفقاتكم اللي رح نجيبهم لهون كلهم....، وهلق ما فيني أقلك غير بدك تحكي ولا لاء.....، ولا انتظرك بمكتبي بدك تحكي خليهم يجيبوك، مابدك بتكون دخلت المرحلة الثانية".

أنهى حديثه، وضربني على خدي ضربات خفيفة، وابتسم، وقال للعناصر: "إذا قالكم بِدّو يحاكيني طالعولي ياه.. وإذا جحّش ودوه لعند باقي الحمير".

***

عندما ذهب وخرج العناصر بقيت وحيداً لا شيء معي سوى دماء الرجل، وبقايا صراخه الذي كلما تلاشى صداه بين جدران القاعة. أعادته ذاكرتي عالياً يملأ الأرجاء، ويعلو صداه أكثر فأكثر.

منظر الدماء تسيل منه. الجروح الغائرة والممتدة في بدنه كل هذا كان يعصف في دماغي، وأنا أبكي بحرقة شديدة. نسيت كل شيء حينها. لا أعرف كم مضى من الوقت، ولم أعد أفكر بعطش ولا جوع. الرجل سكنني بعد أن هرب من المجرمين، سكن في داخلي، أمدني بقوته وإرادته، أمدني بما أريد من أجل أن أبقى قوياً كي أهزمهم. حتى أني نسيت جراحي ورضوضي وكل شيء.

أصبح التحدي هو ما يسيطر على رأسي فقط، سأهزمهم وأكسر جبروتهم. أنا أقوى وأشجع منهم مضى الوقت وأنا بين التفكير والنّوم وكلما غلبني النعاس صحوت جافلاً.

***

فجأة صحوت على حركة فك القيود عني، بدا العناصر بكل قسوة وجبروت. كبيرهم ينظر إليَّ بكل سخط. لا أعرف إلى أين يمكن أن يأخذونني. ولكن

لا أعتقد أن هناك أسوأ مما رأيت. النتيجة نفسها كما يبدو – على اختلاف الطرق – حتميّة الموت.

جرّوني رغماً عنّي وأنا متثاقل الخُطا. مضوا بي سريعاً في ممرٍ طويل حتى وصلنا إلى أبواب حديدية، أمر كبير العساكر أحد الحرّاس بفتح الباب. رفع الحارس العصا الحديدية ضرب بها الباب بشدة عدة مرات، ثم توقّف وقال: "مهجع ١٢ انتباه.. الكل عالحيط يا حمير.. الكل عالحيط بسرعة ولاك".

ثم فتح الباب بعد أن أخذ العساكر وضعيّة الاستعداد. رُميَ بي بقوة داخل المهجع فوقعت أرضاً. نظرتُ إلى الباب الذي أغلق بسرعة لكنّي أحسست ببطءِ لحظة إغلاقه، وكأنّي أستشعرُ لحظات الموت هنا. أو أني دخلتُ عالم النسيان. ماذا يمكن أن يحدث لي بعد هذا. بدأت أقلّب نظري في المهجع: "يا إلهي ما هذا ؟!"

الكثير الكثير من الرجال متلاصقون بشكل كثيف إلى جدران المهجع.

***

أُغْلِقَ الباب، ومن ثمّ سمعنا صوتَ الحارس من خلفه: "مهجع ١٢ اسْتَرِحْ". جعلهم يبدؤون إعادة تَمَوضُعِهِم. بدأت أشعر بالخوف وهم ينظرون إليّ بكثير من الرّيبة والشكّ. هل بعد كلّ هذا أدخل منطقة كهذه، أعمارهم المتفاوتة بين الفتوة والشيخوخة، آثار التعذيب الظاهرة على أجسادهم، رؤوسهم محلوقة على الصِّفْرِ (الزيرو). كأنّها خرجت للتو من قالب واحد. النّحول الشديد وجحوظ العيون، عظام الوجوه البارزة بشدة، لكأني بمدينة أشباحٍ. أعتقد أنّ ملامحهم تحكي سيرَهَم الكئيبة ربّما أستطيع أن أكتب عن كل شخص منهم رواية بحجم رواية (الحرب والسلام).

تقدّم أحدهم إليّ وانحنى فأخذ بيدي وبهمّة أجلسني، قرفص أمامي نادى على أحدهم فناوله قطعة قماش قاتمة ناعمة من بقايا ملابسهم البالية، هنا يُستثمر كلّ شيء، لا شيء يُرمى أبداً مهما كان تافهًا ولا قيمة له، فالحاجة أمّ الاختراع، راح يمسح على جبيني لإزالة آثار الدماء من التعذيب، جاءتني كلماته المُواسية برداً على قلبي، وعرّفني بنفسه: "أنا مؤيد من بانياس طالب طبٍّ بشريٍّ في جامعة دمشق سنة رابعة، اعتلقتُ في مظاهرات في مدينة بانياس".

شابٌّ آخر تقدّم بخطوات ثابتة، تسرّب شيء من الطمأنينة إلى نفسي، غمرتني حالة من الفرح الداخليّ، جعلتني أذهب بعيداً بعيداً خلف أسوار المُعتَقَل، فجاءتني أصوات الهتافات تقرع أبواب روحي، شتّتني عن متابعة

كلمات مصطفى التي تخفّف عنّي ما أنا فيه، ولم أنتبه إلّا أنني اختزنتُ في ذاكرتي أنّ اسمه مصطفى: أنا مصطفى من أريحا، هندسة معلوماتيّة جامعة حلب سنة ثانية، اعتقلوني في مظاهرات ساحة الجامعة، رغم محاولاوتي الفرار من بين أيديهم، إلّا أن المُخبرين والشبّحية أمسكوا بي وها أنذا هنا".

اقترب رجل كبير السنة: "عمك أبوعلي فيك تقول من درعا وفيك تقول من الشام نفس الشي، المهم أنا ضيّفت الشباب ماء في المظاهرة في الشام، واعتقلوني وقتها بحجة دعم المخربين وتوزيع الحبوب المخدرة عليهم".

نظرت إليهم ودموعي بدأت تسيل وقلت بصوت منخفض: "أنا أحمد من الشام، مُوظّف".

– أبوعلي: "شو التهمة؟!".

– أجبت: "ما بعرف.."

– مؤيد: "لا تهتم كتير ... أحلى تهمة تفصل تفصيل عقياسك".

صدمني مؤيد بجملته. لكن المهم أن أبو علي ومؤيد ومصطفى كانوا أقرب زملاء المهجع ١٢ إليّ.

فهم من كسروا حاجز الجمود والوهم بيننا وتركوا الشك جانباً. بدأت أعذر البقية فلهم الحق في الشك في أي معتقل جديد يُزَجّ به بينهم.

***

في المهجع فتحة تنفس علويّة في الجدار المقابل للباب، هذا الجدار يبدو الأقل حظاً من النور ربما لأن الفتحة أعلاه، كنت بعيداً عنه بالقدر الذي يجعلني لا أستطيع أن أميز ما خطّ عليه أو ملامحه بشكل واضح.
الجدران الثلاثة الباقية عالم آخر بكل ما تعنيه الكلمة. في الأعلى الرطوبة والشقوق البادية بكثافة وكأن المهجع سيقع بين فينة وأخرى، لا أعرف كيف يتهالك مهجع يعج بالأرواح منذ إنشائه. ما يثير الدهشة هذه النقوش والرسومات الشاهدة على المعذبين ضمن هذه الجدران. الكثير من الشعر والذكريات (يا حيف... يا ظلام السجن خيّم...). غير أن ما بقي في ذاكرتي على أحد الجدران رسم لمعتقل مصلوب إلى جدار والجلاد بسوطه بقربه وآثار التعذيب والدمار واضحة على الرسم وعبارة صغيرة مكتوبة فوقه (سنصلب جميعنا هنا).
وفي الجهة الأخرى مئذنة واتجاه القبلة للصلاة وآية قرآنية (إنما يُوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب).
وضمن كل هذه المعالم يقبع أكثر من أربعين شخصاً في مساحة لا تتجاوز ٣٥ متراً. يتقاسمون الهواء الضحل القادم من تلك الفتحة وكأنه يأتي بالقَدْر الذي يبقيهم أحياء. ومع قلة الهواء تبدو الرائحة عفنة نتنة بسبب الرطوبة

وقلة النظافة. وأيضاً المرحاض في زاوية المهجع يزيد الرائحة النتنة وخاصة مع عدم وجود باب له فقط يوجد قطعة قماش شبه مهترئة من بقايا ملابس تغطي منتصف باب المرحاض حتى الأرض. توزيع المعتقلين على ما يبدو ليس بالأمر السهل. فلا يوجد مساحة شبر واحد إلا وقد غطاها جسد معتقل ما. الازدحام شديد جداً في فترة الجلوس. فكيف في فترة النوم. التأقلم في المهجع أمر مهمٌ أمام كل ما يجري.

***

المهجع لا يعرف الهدوء ولا الأمان أبداً، فالكلّ خائف قلق. منتظرُ دوره في التعذيب. وبين هذا وذاك تجري الحياة وتستمر مثلما يريد مدير الفرع (السجن). في الصباح يخرج بعض المعتقلين ممن اختيروا لما يسمى (السخرة) لاستلام الطعام (من بطاطا عفنة وخبز يابس أو عفن) ليعودوا إلى المهجع ويوزعوها علينا. هذا النوع المزري من الطعام بدأنا نتعايش ونتأقلم معه بالرغم من أن الكثير منا أصابته مشاكل في المعدة وأعراض لأمراض لا نعرف تمييزها. ولكن ألا يعتبر أيّ شيءٍ دون الموت موت؟! التنفس كان بعد العصر في الساحة الخارجية للسجن، لنلتقي بمئات أو عدة آلاف من المعتقلين، محاطين بجيش من العبيد والحرس. ولكل مهجع

منطقة صغيرة يبقى معتقلوه ضمنها لا يزيدون عنها شبراً واحداً. لنساق سَوقَ قطيع الغنم إلى المهجع مرةً أخرى.

في كل خروج ودخول علينا الركض ما استطعنا ومن الطبيعي الحشر والتدافع عند الأبواب والبعض يقع أرضًا ومن حولنا العساكر الذين لا ينفكون يضربوننا بعصيهم الحديدية بقسوة فيزيدون مأساتنا وأوجاعنا. وكم من رضوض وجراحٍ وكسورٍ أصابتنا، دائماً هناك من يوشك على الموت ومن ي..... يمووووت، نعم يموووت. في الليل بعد إطفاء لمبة الكهرباء المتدلية المحملة بالكثير من الغبار الذي يحجب حدة نورها لتغدو باهتة، نجلس فيما بيننا نعدّ جراحنا بصمت، نئن ونبكي أحياناً، ونحاول أن نقدّم لبعضنا البعض ما يمكن تقديمه من إسعافات أولية. وأغلبنا لا يعرف النوم إلا بعد أن يسقط نتيجة إرهاقٍ شديدٍ. صديقي مؤيد كان كثيرَ التفاؤل. ولا يلبث يتحدثنا عن حلمه في إكمال دراسته واختصاصه في الجراحة العظمية، يحب دائماً الحديث عن مستقبله وعن أخذ الدكتوراه في دولة أوروبية، كان يحب فرنسا جدًّا ويبدي إعجابه الشديد في الفرنسيات وأناقتهن ولا يخفي ذلك في حديثه، ويتمنى لو يجد فرنسية يتزوجها شرط أن تعود معه إلى سوريا. حتى أصبح لقبه في السجن (الفرنسي). الفرنسي كان جميل الشكل أيضاً وأكثرنا حيوية ونشاطاً. يريد أن يخرج بسرعة ليختص ويحصل على الدكتوراه ويعود إلى دمشق يفتتح أكبر وأحدث عيادة في

سورية. كثيراً ما كان يقول:"سأداوي كل مصابي الثورة مدى الحياة مجاناً". عندما أنظر إليه أرى فيه سوريا الغد. سوريا الطيبة الناجحة المتطورة أيضاً. سوريا القوية بأبنائها المثقفين.

في المعتقل المأساة الكبرى كانت في التنفس عصراً، نجلس القرفصاء بعد أن رتّبونا حسب الطول. يبدأ الضابط المسؤول عنا بالتجوّل بيننا حاملاً عصاه برائحة عرقه النتنة، وصوته المزعج. وهو يسبنا ويشتمنا بكل ما يحمل من قبح. نحن لم نكن نقوى على الرد ولا حتى على التنفس والحركة، فأي معتقل صدرت عنه أيّة ردة فعل سيعتبر ميتاً تحت التعذيب. صمتنا أو جمودنا هذا كان يصيبه أحياناً بالجنون، مما يجعله يضرب بالعصا أيّاً منا، وقد يركل برجله. الكثير منا يحاول الثبات قدر المستطاع بعد ما نتعرض له. ولكن غالباً ما كنا نقع أرضاً. ليَصبَّ عندها جام غضبه على من وقع.

وكم مرّةٍ جرّ المعتقل الذي وقع إلى الأمام وقام بضربه بقسوة بالغة بالعصا وبرجله حتّى لا يعود المعتقل قادراً على أية حركة ودماؤه بدأت تغسل نتانة الأرض من روث الأوغاد.

في إحدى المرّات ركلَ الضابط زميلي مصطفى بقوة فوقع أرضاً صارخاً بشدة. لكن مصطفى استمر بالصراخ بطريقة غريبة. ومع ذلك جرّه الضابط

وبدأ يضربه حتى لم نعد نسمع له صوتاً، بدا كجثة هامدة، خيّم الصمت على الجميع، حتى الضابط الذي راح يتفقدنا بلؤم ونظرات خبيثة.
عندها أمر بعض العساكر برفعه إلى المستوصف، لم أستطع أن أذرف دمعة وقتها بالرغم من قساوة المشهد، الخوف كان سيّد الموقف في الساحة.
من يومها اختفى مصطفى. كأنه ورقة سقطت ولم نعدْ نراها.
وكنّا كل يوم أو يومين نفقد شخصاً منا ليأتونا بمعتقل جديد. حتى أبو علي لم يسلم ففي إحدى المرات وتحت التعذيب كُسِر حوضه ولم يعد يستطيع الحركة، كنا نحاول أن نساعده ما استطعنا، هذا الرجل الكبير كان بحاجة إلى عناية فائقة وخاصة في خروجه إلى الحمام وتنظيفه. كان يخجل منا كثيراً، إلا أنا كنا نشعره بأننا أبناؤه. كبير السن غالباً يشعر بشيء من العجز أمام أبنائه وكثير من الإحراج في الأمور الخاصة، فكيف سيكون الأمر معنا.

***

الأيام تمرّ بكل مافيها من بؤس يختفي البعض فجأة ويظهر جددٌ بسرعة. والموت هو أكثر ما نعلل به الاختفاء وما أصعب وقعه على النفوس.
مؤيد – الذي كان آخر مواسٍ لي في المهجع وأقربهم لي بعد اختفاء مصطفى ومرض أبو علي بالرغم من تعرّفي إلى الكثير من زملاء المهجع

– اختفى فجأة. كان قبلها بيوم يحدثني عن أحلامه وعن شوقه لأهله، وهو الذي قضى في المعتقل أكثر من سنة، ولا يعرف شيئاً عن أهله، شأنه شأن باقي المعتقلين.

عندما كنتُ أستمعُ إليه كنت أحس بدفء قلبه، إنه مثل الأرض والأشجار والبحر وسورية. وهو في نفس الوقت كان يمتلك الوعي والمسؤولية ليصبح طبيباً ناجحاً، فهو في حالات الإسعاف أكثر جرأة وجلداً وتماسكاً من غيره. يعرف كيف يقف وماذا يفعل، في الوقت الذي نعجز نحن أمام هول الصدمة التي تجرفنا في تيارات صمتها. مؤيد كان يعد العدة دائماً للخروج وأكثرنا أملاً بذلك، غير أن اختفاء الكثير وما نسمعه عن موت البعض جعلنا نشعر بالخوف من مصير واقعٍ لا محالة، إلا أن مؤيد لم يكن ليظهر لنا ذلك، أما أنا فكنت أضعف من أن أخفي أمراً كهذا.

***

اختفاء مؤيد جعلني أشعر بالسقوط في بئر من العزلة، وما من واردٍ قد يُدلي لي بدلوٍ يروق لي. حالتي هذه شعر بها الجميع، والكثير من زملائي حاولوا التخفيف عني إلا أني لم أكن لأستجيب لأي منهم.

أمضيت عدة أشهر بهذه الحالة وكثيراً ما تعرضت للتعذيب مثل غيري من المعتقلين، أمّا أبو علي فقد ساءت حالته ونُقل إلى حيث لا ندري. وباقي المعتقلين بين وارد ومفقود. المشهد العام للمهجع بدا أكثر تعاسة مع فقدان العديد، ولم يكن هناك مجالٌ لمعرفة مصير أي معتقل اختفى من بيننا. دائماً نحن لا نضع بداية الأشخاص في حياتنا ولا نستطيع وضع النهايات لهم. حتى وإن كنا على اختلاف معهم فلا بد أن يظهروا، وما بين فرحٍ وحزنٍ تدور الدوائر. أمّا في السجن فالوضع مختلف تماماً. فأمام كل هذا التعذيب لا بد من التمسك بشخصٍ يشعرك بأمان أقل ما يمكن أو ببصيص أملٍ ليومٍ أفضل. لكن الفقد بالشكل المفاجئ يجعل الأمر مريباً جداً ويترك ألف سؤال وسؤال. أين اختفى ولماذا هو. هل قُتِل. هل أُفْرِجَ عنه. هل كان مُخْبِراً بيننا. هل نُقِلَ إلى مهجع آخر. أم إلى المستشفى؟!

من الصعب جدا التأقلم مع شخص داخل هذه الجدران. ولكن الأصعب أن تفقده بعد أسندت إليه بؤس اعتقالك ومرارة موتك البطيء. كل من بقي تجد في وجهه أسئلة كثيرة ودهشة وخوف من مصير مجهول. وكأننا ننتظر دورنا. نعم بالفعل كنّا كذلك، فمتى يحين دوري أنا؟!، وما هو مصيري؟!

***

في صباح أحد الأيام استدعوني وقاموا بجرّي إلى قبو التعذيب الأول الذي مررتُ به سابقاً، وهنا أعادوا صلبي إلى الجدار. وما هي إلا بُرهة من الزمن حتى دخل علَيّ الضابط، ومعه بعض العساكر أيضاً.

ضربات قلبي أصبحت أكثر تسارعاً وبدا جحوظ عيني واضحاً، إلا أن صراخ الرجل – الذي رأيت تعذيبه هنا سابقاً – أعاد الوعي لي. نظرت إلى الضابط غير آبهٍ بشيء.

– الضابط: "قِرِدْ زمان عنك، وين كاين ولا ".

واقترب وخلع اللاصق عن فمي بشدة، فلم أجبه بشيء.

– تابع: "أنا انتظرتك كتير، ومو حابب بهدلك. بس وحياتو لربك لخليك تشتهي الموت".

– قلت: "أنا شو عملت؟".

– الضابط: "يبدو أنه راسك مطفي.. رح شغلك إيّاه".

– وتابع للعناصر: "هاتو لي سطل هالمي والسلك واللمبا".

أمسك وعاء (سطل) الماء وسكب الماء عليّ، من ثمّ قام أحد العناصر بربط سلكين من الكهرباء أحدهما برجلي اليمنى والآخر بيدي اليسرى. وعلى مقربة من شمالي كانت هناك (لمبة) ضوء موصول مع السلك ومن ثم قاطع كهربائي. الدارة الكهربائية التي اكتملت وغدوت عنصراً مهماً فيها

تحتاج فقط توصيل الأسلاك إلى القابس ليمر التيار في جسدي مخترقاً كل خلاياي.

– الضابط: "شو حبيبي نشغلك عقلك ولا أنت تشغلوا".

– أنا: "شو بدّي شغل. ما بعرف شي".

– الضابط: "ما بتعرف ولا كِرْ..". وتابع للعنصر عند القاطع: "يا عسكري وصّل الكهرباء....".

–: "آآآآآآه".

(صرخت صرخة قويّة، وبدأتُ أرتجف من الكهرباء أحس أن جسدي يشتعل ناراً). عندما أدركَ أنَي اقتربت على النهاية أشار للعنصر بقطع التيّار.

– قال لي: "شو؟! آ بدّك تحكي ولو قرد؟!".

– أجبت: "شو احكي.. مو لأعرف شو أحكي".

فأشار للعنصر مرة أخرى، وكررها أربعاً، وبين كل مرة، وأخرى السؤال نفسه، والجواب أيضاً

– إلا أني بعد الرابعة قلت: "رح احكي كل شي.... رح احكي سيدي".

أحسست أن خلاياي احترقت، وكأنني في نار جهنم حتى الماء الذي صبه علي ما كان إلا لزيادة أثر الكهرباء، لقد بلغت غرغرة الموت مرات عديدة في هذه الدقائق القليلة، من جديد أمر أحد العناصر بجلب سطل ماء وسكبوه علي.

– قال لهم: "بعد نص ساعة طالعولي إياه".

في الحقيقة عجزت عن التفكير بأي شي؛ لأن الموت التقطني عدة مرات ومن ثم لفطني. وربّما في لحظة ما تشبّثتُ بالحياة، لا أدري لماذا أعتقد أن ذلك الرجل الأربعيني كان أقوى منّي.

نظرة العناصر باتجاهي اختلفت. فكّوا قيودي وأنزلوني، أعطوني دلو ماء. حاولتُ مُثقلاً أن أغسل يديّ ووجهي، ولكني لم أقوَ على ذلك. فبمجرد أن أَمَلْتُ الدلو لأسكب الماء عجزت وتركته. كنت أرغب في أن أرى وجهي، أن أعرف مقدار ما أحمل من جراح وندوب. الزمن لا يتوقف عند بوابات الحزن والأسى لكنه قد يأخذ قسطاً من الصمت هناك. كيف لي أن أَعْبُر إلى نفسي لأراني بوجهيَ الآن بكل مافيه بجراحي بآلام البشر منذ بدء الخليقة على جسدي؟!

بتُّ أدرك أن الهزيمة موتٌ، وولادة جديدة. فالحياة ما قبل الهزيمة تختلف عمّا بعدها. قبل الانكسار أنت كائن لك المدى تنطلق فيه وإن سُدّ بابٌ بوجهك اتجهت إلى غيره، أما بعد الانكسار فأنت شيء من الأشياء ثمنه بما يقدم من خدمات، فالتلفاز يخدم والهاتف الجوال يخدم و لكل ثمن ، والمنكسر مثلهم. آآآآه ما أصعب أن تكون شيئاً أو أداة بيد الآخرين في هذه الدنيا.

مضت النصف ساعة وأنا ملقى على الأرض بعد عجزي عن فعل أي شيء. أتى إلي العنصران رفعاني لأتكئ عليهما وأمضي معهما. كنت ميتاً ولا حول لي ولا قوة. رجلاي إلى الخلف منهم تزحفان على الأرض من رؤوس الأصابع. حتى العنصران اللذان يحملاني ربما أرْهقْتُهما بما أحملُ من ألم وما أفقد من أمل. رائحة الدخان النتنة الصادرة من فيهيهما مع لهاثهما المتصاعد بسرعة، رطوبة الممرات، صراخٌ من هنا وآخر من هناك، أصوات ضربات السياط على أجساد المعتقلين، صرير أبواب معدنية.

وأنا المحمول على كتفين من موتٍ إلى موت. تحاول أن أمشّط هذه الأرض بقدمي المثقلين. بدأنا نصعد الأدراج وأصابعي ترتطم بكل درجة نصلها. وكل ضربة تهز جسدي هزاً وتشعلني ألماً. يااااااااااااااااه، ربّما أحتاج أن أدنو من الأرض أكثر أن أولدَ من جديد.

أشجار الزيتون في بلادي تكبر بطاءً وتثمر بعد حين ولكنها تهوي سريعاً، وكذلك هم أبناء بلدي. والأرض الأم ترقبهم حتى يكبرون وتموت مع كل غصن ينزفون، مع كل جرح يجرحون.

توقف العنصران رَكَناني إلى الحائط، وراحا يهمسان لبعضهما والتعب بادٍ عليهما. أما أنا فحاولت أن أطبق جفناي لأستريح مني قليلاً، لكن ذلك لم يكن إلا هنيهة حتى رفعاني بعد أن تبادلا موضعيهما بالنسبة لي. ثم تابعنا وأنا أصعد معهما ، ورأسي يعلو ويهبط وما أشبهني بفاقد الوعي أو فاقد

الإحساس حينها. فماذا قد يفيدك وعيك أو إحساسك في مثل هذا سوى زيادة الجراحات.

هؤلاء لا يهتمّون بنا أبداً أحياءً أو أمواتاً. بل همهم إذلالنا وكسر نفوسنا. فأن لا تهتم بشيء أو بشخص قد تتركه وشأنه، ولكن أن تهينه، وتعذبه، وتقتله هذا يعني أن الشخص مهم جداً أو بالأحرى مصدر إزعاج وقلق.

فأنا لا أعتقد أن هذين العنصرين مرتاحان مني بأي شكل فأنا بالنسبة لهما مصدر تعب وتوتر نفسي، وجودي يجعل الفرع كله في حالة قلق، وجود أي مواطن في الوطن لا يقدس الطاغية يجعل الطاغية ومن والاه في حالة استنفار تام، ولو قاموا باعتقاله فهو سببٌ مهم لقلة نومهم وجنونهم. فالحيوان مهما كبُر حجمه تؤرقه شوكةٌ في نقطة من جسده.

يبدو أننا وصلنا، أخبرا حارسي باب المكتب. فدخل أحدهما – بعد أن طرق الباب – وأغلقه خلفه. أجلساني على الكرسي، ظهري المحني للأمام قليلاً، يدي اليمنى بين رجلي واليسرى إلى يسارهما، وقد تدلتا بلا عزم قد يرجى منهما ولا فائدة. رقبتي إلى اليسار والأمام قليلاً، نظري إلى الأرض، لا أستطيع أن أميز بشكل دقيق ما أرى، أمواج من الغبش تمسح الصور التي تلتقطها عيناي فتخفي أكثر مما تبدي، وتوشك أن تدمجهن معاً. هناك ألمح بساطير العساكر السوداء، بلاط الأرض المائل إلى البني من شدة الغبار عليه، قليلاً من الحصى الصغيرة ضمن ذلك البلاط، فردة بسطار

واحدة كانت تكفي لأعرف أين أنا، وماذا أفعل. إنه ذلك البسطار الأسود اللامع، أحياناً تبدو بعضٌ من نتوءاته ورباطه وأحياناً يضيع المشهد كله. هذا البسطار يشبه شيئاً ما، غريبٌ أمره بالفعل، عندما تلمحه للوهلة الأولى تدهش به، البسطار العسكري قاعدته مغلق تمامًا، ونظيفة مُلَمّعة في نفس الوقت، في جزءه العلوي يوجد رباط مطاطي غالباً يَسمح بمرور الهواء، أو يسمح بخروج الروائح النتنة، من أين أتت النتانة؟!

ماذا يوجد داخله؟!

كم من الوقت تبقى القدم محبوسة ضمن هذا السجن، تتعفن داخله أو تعطب.

ليس مهماً، لم أعد قادراً على رفع رأسي، حتى هذا البلاط كان جميلاً يوماً ما، وكان حراً أيضاً في بقعة ما من هذا العالم، وكان يعيش مع بني قومه. واليوم ها هو بيننا أو تحت أقدامنا، يدوس عليه الجميع. لماذا ندوس جميعاً على نفس البلاط، هل كلنا ندوس على من تحتنا، هل هي عادة البشر أم ماذا؟!

خرج العنصر وقال: "انتظروا شوي".

لم أر وجهه، ولكني سمعت صوت الباب، ومن ثم صوته.

ننتظر، وما لنا ألا ننتظر في هذا العالم. يبدو أنني بدأت أستعيدني مرة أخرى. أو أنني جننت. ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء بي إن حدث ذلك؟!

وما لهم وللمجانين، أحتاج كأساً من الجنون أو وجبة دسمة من القهر حتى أصرخ كثيراً (بدي انجن.... بدي انجن ...).
هذه الأشباح حولي توقظني بهمسها كل لحظة أو تغير لي مجرى جراحي.
ماذا لو قتلوني اليوم. ولماذا يفعلون ذلك؟!
أظن الطريق يضيق ويصعب التفكير به.

***

رُفعت بعنوة من مكاني فتح أحدهم الباب ودخلت مع اثنين من العناصر.
العنصران (مع التحيّة): "احترامي سيدي".
ثم وضعوني على الكرسي أمام طاولة الضابط، بدأت أنظر يميناً وشمالاً، أتفحّص عناوين الكتب (هكذا قال الأسد، الاشتراكية من منظور البعث، الأب القائد، تشرين وكسر شوكة إسرائيل، الوحدة العربية من منظور الأسد، .....).
حين بدأ الضابط بالكلام. كان يجلس على كرسي جلدي (دوّار)، خلف طاولة فخمة عليها من اليمين تمثال معدني للرئيس يضع يده عليه ويرفع عينيه إلى الخلف ليقسم متى شاء، وراؤه مباشرة، وإلى أعلى منه صورة الرئيس بمساحة تتجاوز المتر المربع ببذته العسكرية ونظرته البليدة.
المكتب يبدو أنيقاً واسعاً ولكن ماذا عما يجري خارجه؟!

– الضابط: "إيه يا أحمد ... احكيلي لشوف وين رفقاتك؟".

أحمد: "سيدي ما بعرف والله". (بخوف وحزن شديد)

– الضابط: "شوف ولك .... إذا بتكون منيح وبتحكي وبتتعاون معنا واللي خلقك بتصير وبتتصور، وما بتعود سائل عحدا..، وإذا لاء ما بتطلع من هون إلا عالمقبرة ... فهمت شو بحكي ولّا لاء".

– أجبت: "سيدي أنا من يدك هي لإيدك هي ...، بس ما بعرف شي ولا شو احكي".

– الضابط: "لك رفقاتك صاروا إرهابيين، وبدهم يدمروا البلد، وانت ما بتعرف..، لك بدهم يخربوها ويجيبوا آل سعود والأمريكان لهون وأنت ما بتعرف".

وهو يتحدث بهذه الطريقة خطرت ببالي فكرة ولعبة خطيرة جداً فقلت له (بخبث): "معقول سيدي؟!".

– الضابط: "ولك شو انت حمار ... مو سامع شو عمصير بالبلد؟".

– أجبت: "بس يا سيدي كلهم بهربوا من البلد بسرعة، بفضل جيشنا البطل".

– الضابط: "إيه لكان شو مفكرين هالمذ...يك بدنا ندبحهم ونقتلهم واحد واحد".

أحمد: "إن شاء الله سيدي".

الضابط: "إيه يلا احكيلي وينهم رفقاتك".

– أحمد: "سيدي ما بعرف عنهم شي من زمان، بس إللي بعرفوا صارو بإدلب".

– الضابط: "إيوا ... هون حطنا الجمال. في إدلب..، هي إدلب بلد الإرهابيين كلهم، جمعنا فيها كل الوسخ ... ومع مين هِنّ".

– أحمد: "سيدي بالتحديد مابعرف".

– الضابط: "لازم تعرف".

– أحمد: "ياسيدي الله يخليك اللي بعرفوا حكيته".

– الضابط: "بدك تعرف غصب عنك.. قرد شو مفكرنا نلعب معك".

– أحمد: "سيدي والله بس هيك. وحتى من بداية الأحداث قالوا عني شبّيح".

– الضابط: "شو قالوا عنك شبيح!، ولك الشبيح بشّرفك وبشرفهم، الشبّيح حامي الوطن. لولا صرماية الشبّيح كان الأمريكان بنص الشام مع أمّك وكلّ السوريّات".

– أحمد: "مثل مابدكم سيدي".

تناول علبة السجائر الأجنبية بيساره من فوق الطاولة وأخرج سيجارة منها وضعها في فمه وهو ينظر إليَّ ولا أعرف ما يدور في ذهنه إلا أن نظراته خبيثة كذئب يفكر كيف يراود حملاً لينقض عليه ويأكله.

أشعلها وقام من مكانه قادماً باتجاهي، حاولت أن أستدرك ما سيفعله بطرف عيني دون أن أحرّك وجهي خشية أية ردة فعل، أحسست أنه أصبح خلفي

تماماً، فجأة ضرب كفيه المفتوحين على كتفي بقوة وكأنه يريد تثبيتي وأبقاهما كما هما.

– الضابط: "اي وراس الإمام علي انت فهمان. وبتخاف عالوطن".

– أحمد: "كلنا فدا الوطن سيدي".

– الضابط: "وسيد الوطن يا كُر".

– أحمد: "وسيد الوطن أكيد".

– الضابط: "هيك بدي اياك".

رفع يديه ومشى حتى أصبح قبالتي جلس على الكرسي وبحركة حقيرة لئيمة رفع رجليه ووضعهما على الطاولة الصغيرة التي بيننا ليصبح بسطاره العسكري قبالة وجهي.

كيف يمكن لي أن أرد هذا. لم أكن أقوى على شيء بالرغم من النيران التي تأكلني من الداخل. كنت أنقّل ناظري بين بسطاره ووجه ولا أجد فرقاً بينهما. الضابط وكأنه شعر بي: "العذر منك يا أستاذ أحمد لكن عندي تشنج برجلي من كتر الشغل، تعرف إرهابيين بالنهار وإرهابيات بالليل.. الواحد شو بدو يصير ليصير".

– أحمد: "مو مشكلة سيدي".

– الضابط: "بتعرف مو قادر أوصل للبوط ... بعد إذن شواربك فك لي هالرباط وشلحني إياه".

– أحمد: "عفواً سيدي..".

– الضابط: "إيه بعد إذن شواربك".

كظمتُ بركان غيظي ومضيت بالرغم من كل ما بي من ألم وجراح. دنوت من رجليه. حللت عقد الرباطين. ولمّا بدأت أنزع أول فردة بسطار راحت الروائح النتنة تفوح، كدت أختنق ولكن لا بد من الإكمال ضمن كل هذه القذارة. وضعت البسطار جانباً بعد أن امتلأ المكتب برائحة رجليه القذرة. أشعل سيجارة أخرى ونظر إليَّ بكل استخفاف وبعد أول نفس منها، قال: "شوف يا أحمد.. عمرك بيدك ... إما بتكون جندي من جنود الوطن وقائد الوطن وبتعيش ملك أو بتكون كلب إرهابي ما بتطلع من هون إلا عالقبر. واللي بدك إياه".

– أحمد: "سيدي أنا كلي للوطن وقائد الوطن. تحت أمركم سيدي".

– الضابط: "اتفقنا هيك .... رح ننقلك على مكان آخر ونأهلك لخدمة الوطن".

– أحمد: "بأمركم سيدي..".

***

ابتسمَ الضابط؛ أمر العناصر بحملي وأخذي إلى غرفة وبالفعل كانت مقبولة نوعاً ما. بعدها دخل عَلَيّ الطبيب وبدأ بعلاجي؛ تعامله معي كان بمنتهى المهنية والانسانية وكأن الأوامر أتت بذلك، كان حريصاً على أن يقدم لي أفضل خدمة صحية. وقبل أن يخرج أوصى أحد العناصر بالعناية بي وإعطائي الدواء في وقته. العنصر الذي أظهر السمع والطاعة للطبيب خرج معه. وبقيت وحيداً في الغرفة كانت صغيرة ولكنها أفضل بكثير من أي مكان مررت به في هذا الجحيم. سريري الذي تمددت عليه كان مريحاً مقارنة بإسفنجات المهجع رقم ١٢. حتى الجدران والإضاءة وفتحة التهوية أفضل.

الهواء لا أحد ينافسني عليه، بعض الراحة المؤقتة توقظ الشعور داخلي بأني ما زلت حيّاً. وكأن الريح حملتني إلى أرض غير الأرض التي كنت بها ودارٍ غير الدار التي ألفتها.

***

عاد العنصر بعد ساعة تقريباً وأنا في حالة شرود. حاولت النهوض وكان صعباً علي الجلوس فبادر بحركة رشيقة ساعدني بها على الاعتدال بعد

أن وضع الطعام على حافة السرير. نظرت إلى الطعام مستغرباً عندما ناولني إياه.

-: "يا إلهي ماهذا ؟!، كأني في عالم آخر (صينية صغيرة فيها بيضتان وحبتا بطاطا مسلوقتان مع رغيف خبز شبه طازج وكأس شاي كبير) ماهذا الدعم؟!".

العنصر الذي وقف عن يميني حين بدأت الأكل. قال لي:

"اسمي رواد.. وأنا معك هون لتشفى. أي شيء بدك اياه بتنادي عليّ".

نظرت إليه مستغرباً وفي داخلي الكثير من علامات الاستفهام وودت أن أسأله هل أصبحت إنساناً بالنسبة لكم أو لأسيادكم. ترى ما هو معيار الإنسانية عندهم ؟!، ابتسمت في وجهه" وقلت: "شكراً.. أنا أحمد".

رواد: "تناول طعامك وسأنتظر في الخارج". وكان مهتماً بي جداً لا أعرف السبب ولكن منذ ذلك اليوم وأنا أمضي وقتي بشكل جيد وأتعافى بسرعة. نومي أصبح صحياً ومنتظماً. لم أعد أشعر في هذه الغرفة بالضجة، ولا بالترهيب الذي عشته من قبل.

كنت أصحو على فتح الباب الساعة السابعة؛ لأنهض، وأستعمل الحمام في نفس الغرفة، ولكنه حمام حقيقي؛ أستطيع أن أقضي حاجتي فيه دون أي توتر وضغط وحرج.

وأغسل وجهي ويديّ وشعري، لأعود إلى سريري، ويكون رواد قد أحضر الفطور والدواء، أتناولهم وبعدها يشغلون لي المذياع، لا أعرف من يُشغّله؛ إنما أسمع الصوت عبر مكبر الصوت في غرفتي فقط.

لأسمع إعلام النظام. بعض البرامج كنت أحبها قبل الثروة، وبعض الترفيه كان مقبولاً، لكن الطامة في الأخبار.

الطبيب كان يأتيني حوالي التاسعة صباحاً؛ ليكشف على حالتي، ومدى تحسّني صحياً. ويسألني بعض الأسئلة الروتينية. لأمضي باقي اليوم بين المذياع، والنوم، وأحياناً يحضر لي رواد الجريدة الرسمية من مكتب الضابط، الذي يرسلها لي، ولا أعرف إن كان هناك حالات مشابهة لي يرسلوها لهم أم أني الوحيد. في المساء أركن إلى نفسي وأنا أستمع إلى المذياع بعد تناول العشاء الصحي، لأنام حوالي العاشرة ليلاً على هدوء وصمت، وربما تحت تأثير الأدوية.

تعاملهم معي كان جيداً في هذه الفترة، وكنت أستمع وأحاول أن أفهم ما يجري خارج السجن من خلال الأخبار التي تسكب الكذب المعتاد على طريقتهم سكباً لأتشربها كما تتشرب الأرضُ الماءَ الآسنَ رغماً عنها أحياناً.

استعدت صحتي بعد مدة من الزمن بشكل كامل والحمد لله رب العالمين وكأنّ هذا إيذاناً ببدء مرحلة جديدة فقد ودّعني رواد صباح أحد الأيام بعد

وجبة الفطور، ليقتادني بعض العناصر دون أي قيد على يديّ أو إهانة بحرف.

***

في الطريق بدأت أرى الكثير من العناصر يتحركون كخلايا النحل. وما بين عنصر صغير وضابط كبير ألف حكاية وحكاية. الكل يمضي وكأنه على عجلة من أمره، البعض يلقي السلام وكأنه يعرف الكل، والبعض يمضي خائفاً يحمل أوراقه مسرعاً إلى جهة ما. البعض يسوق معتقل ما بضرب وإهانة كلامية. كنت أحاول أن أستدرك وأحفظ بعض الوجوه لكن سيرنا السريع كان كفيلاً بعدم ترك أي أثر للوجوه إلا كمنظر عام. ثم ما نفع الأوراق هنا. وماذا يمكن أن يكتب فيها وكل التهم مركبة حسب مزاج ولؤم الضابط. أم أنهم بحاجة إلى تقارير استخباراتية لمن هم أعلى منهم . كأنّ هذا الفرع الأمني من أهم فروع الدولة. لديه مديرٌ خطير، ومدبّرٌ حذق للحفاظ على النظام.

لا بد وأن هذه الوجوه تصبح مختلفة خارج أسوار المبنى. السلاح الذي يبدو هادئاً مستقراً على خصر كل واحد هنا، أعتقد أنه يرقص كالمجنون خارجاً. هل الأسلحة تجن وتثور تحت الشمس فقط وتركن في الظلام. لا

بد أن للشمس تأثير ثوري يغري غضب الأسلحة. لتطلق العنان لرصاصاتها.

***

دخلنا مكتب الضابط الذي قام من فوره وعانقني ورحّب بي بشدة. نعم وكم كرر على سمعي جملة (أنت هلق صرت شبل من أشبال الأسد سيادة الرفيق المناضل بشار حافظ الأسد). فأظهرت أني سعيد وفخور بهذا كله وأنا ماض معهم.
الضابط أخبرني أني أصبحت مؤهلاً للعمل معهم وأني سأذهب إلى قسم آخر في نفس الفرع. وبالفعل تم ذلك وبسهولة وفي نفس المبنى.
أدخلت مكتباً أفخم من مكتب الضابط. في الصورة خلف الطاولة الرئيس ومعه ضابط أظنه برتبة عميد يصافحان بعضهما. على اليمين هناك خزانة كتب فيها العديد من المجلدات من العناوين التي أذكرها عدة مجلدات (هكذا قال الأسد)، وأيضاً الحركة التصحيحية.
وهناك رفّان كاملان للدروع المعدنية والميداليات والأوسمة. وما بين وسام الشرف ووسام البطولة ووسام حرب تشرين والفدائية والقفز المظلي والفروسية..، إلى تكريمات في الثقافة والصناعة من مؤسسات وشركات

وكأن صاحب هذا المكتب أحاط بالمجد من كل جوانبه وكل هذا من النظام ومؤسساته لا من جهة عالمية. غير أن المكتب مازال خالياً من أي أحد، باستثناء العنصرين القريبين مني.

***

فجأة فتح الباب ليطل رجل خمسيني ببذته العسكرية وكرشه المتدلي وأوسمته ونياشينه العديدة على صدره. ورأسه الأصلع، لم يسلّم وإنما جلس بسرعة على كرسيه فتح ملفاً أمامه كأنه ملفي. فمن أول صفحة بعد فتحه وبعد قراءة بعض كلمات نظر إلي، وقال:

– "أحمد؟".

– أجبت "نعم سيدي".

– "اقعد".

امتثلت لأمره بالجلوس. ومن ثم أشار للعنصرين بالخروج.

– "شو قصتك؟!".

– "شو في سيدي".

– "عيمقولوا عنك شب محترم وابن حلال. والوطن بحاجة للشباب الأبطال مثلك".

– "تسلم سيدي الله يخليك".

– "شوف يا أحمد. أنا شايف أنك حابب تدافع عن الوطن، وتكون جندي مخلص للسيد الرئيس".

– "أكيد، سيدي".

– "يبقى أنت من اليوم وطالع رح تنفذ الأوامر، وبس".

– "حاضر سيدي".

– "أي شي بدك إياه بتطلبه مني، وأي مشكلة بتصير معك بتحكي معي".

– أحمد: "أمرك سيدي".

– العميد: "أنت هلق رح تخضع لدورة تعبوية وتوجيه سياسي هي الدورة رح يكون معك فيها عدة شباب قبضايات مثلك كلهم بهمهم يخدموا الوطن بشرف ويدافعوا عنه. هلق رح ياخدوك الشباب على مهجع مشترك فيه رفقاتك وبدءاً من اليوم المساء رح تبدأ الدورة".

***

بالفعل أخذوني. في الطريق رحت أتساءل في نفسي ماذا يمكن أن أفعل ومن يشاركني في المهجع. هل سأرى من فقدتهم في المهجع ١٢؟! أم كل شيء سيكون جديداً.

كل هذا غير مهم المهم عندي أن أخرج من هذا الجحيم وأهرب من هذه الوحوش. علي أن أسايرهم بقدر استطاعتي وأسأل الله أن يوفقني في ذلك. وصلت إلى مهجع فيه عدة أَسِرّة ببعض الشباب كل العيون مليئة بالخوف والذعر.

جلست على أحد الأَسِرّة حاملاً بيجاما أعطوني إياها، وأنا أنظر إلى كل الجهات، وبالرغم من صغر مساحة المهجع، وقلة الموجودين إلا أنه لا يمكن لأي شخص أن يثق بآخر.

العميد الذي قال لي ما قاله كانت الجدية تبدو عليه. وبالرغم من محاولته إظهار وطنيته وترغيبه إلا أنه كان يخفي الكثير من اللؤم ويبدو أنه فعل الشيء عينه مع كل الشباب في هذا المهجع. إنه الدرس الأولي أو التهيئة النفسية. محاولة قراءة المكان الجديد أو قراءة الوجوه المحيطة بي أمر مرعب في منطقة ما من بلدٍ تحكمه الجنرالات. حيث أني لست هنا بإرادتي، فأنا هنا بأمر البسطار العسكري برائحته النتنة، ذاك الذي نزعته بيدي عن رجلَيْ الضابط. وكأني أومأت له بالقبول بكل شيء.

بعض الكلمات كانت تُلقى في هذا المهجع بين الجميع مع حذر شديد دون سؤال أحدنا حتى عن اسم الآخر. الكثير من الريبة وعدم الثقة. هنا كل الاحتمالات واردة. ولا حقيقة مطلقة في هذا العالم. إن الأحداث رمتنا جميعاً تحت أيدي هؤلاء في لحظة كان يمارس فيها العالم عهره على الملأ.

العالم الذي يتشدق بالرأفة بالحيوان نسي أننا نهان أكثر من أي مخلوق على هذه البسيطة.
ربما يجدر بنا الاتصال بكوكب من الحمير علّهم يشكلون فيما بينهم جميعة الرفق بالبشر يناصروننا فيها.
من أين جاء كل واحد منا. وجوههم تبدو كغابة لا تعرف أصناف الأشجار فيها وفي نفس الوقت لا تشجعك على الخوض في التفاصيل والدخول شبراً واحداً فيها خشية الانزلاق في عالم لن يطيب لك شيءٌ فيه. لعل الحرص والحذر أفضل ما يمكن الالتزام به في قادمات الأيام.

***

عندما أحضروا لنا الغداء (لكلٍّ طَبَقَهُ) بالرغم من سوء طهي الأرز والمرقة (الحساء) إلا أنّ الجوع جعلنا نأكل كالوحوش منه، ونستلذّ بكلّ لقمة وفي وقت قياسيٍّ أنهينا أطباقنا؛ ليرجع كلّ إلى سريره نراقب بعضنا، نسترق النظر لأيّة حركة من أيّ منّا.
بطيئاً مرّ الوقت. عند المساء أخذونا إلى قاعة ضيقة، لم يكن التعامل هذه المرة كسابقاتها من حيث الضرب على ظهورنا والكلام الفاحش الذي لطالما سمعناه.جلسنا أرضاً ننتظر أن يحدث أمرٌ ما، ولا نعرف ما هي الخطوة

المقبلة في هذا السيناريو المخيف. وما لبث أن دخل علينا العميد بهمة مع بعض الضباط الأقل رتبة منه والعديد من العناصر.

العميد كان حازماً في حديثه متمكناً من جمله ولغته ومعلوماته. يحاول أن يسهب ما استطاع .الحديث عن مدرسة الممانعة والصعود في وقت كهذا أشبه بتبرئة عاهرة بعد أربعين سنة في بيوت الدعارة.

إلا أنّه(العميد) ما كان إلا ليقدّم أفضل ما لديه من كذب، وأجود ما لديه من زخرفة وتأجيج المشاعر بطريقة يجعلنا نحس وكأننا على حدود فلسطين لتحريرها. أما نحن فلم يكن أمامنا خيار إلا الإنصات بحذر إلى كل حرف مما يتفوّه به، فمن غير المعقول أن تثق برقصة الأفعى أمامك، وإن أظهرت الودّ لك.

في آخر كلامه ركّز علينا، وما سنقوم به من عمل وطنيٍّ، سيساهم إلى حدّ كبير في القضاء على عملاء الدول الإمبريالية، وأنّ مهمتنا بدأت من هذه الساعة، لنكون قد انخرطنا في دورة إعداد عقائدي حسب ما كان يتحفنا به في ذلك المساء.

حين أنهى كلامه، خرج ومن كان معه؛ تنفسنا الصعداء جميعاً، تبادلنا التهاني بعيوننا على الانتهاء، والتعزية على هذه الورطة الجديدة.

عدنا أدراجنا، وبعد أن تناولنا عشاءنا رحنا في سبات عميق لإطفاء الأنوار، وبسبب بعض الآلام التي مازلنا نحملها جميعًا، وأثارها على أجسادنا.

فجأة نهضنا عن أسرّتنا تحت تأثير صراخ معذبين عالٍ جداً. وكأن كل صوت يصل حتى الأرض السابعة والسماء السابعة. خوفٌ شديد أصابنا ولكن شيئاً واحداً لا أدري ما هو جعل كلٌّ منّا يبقى في زاوية سريره مجمعاً أنفاسه، وكأنه يخشى شيئاً قادماً إليه.

بقيت أنا متيقظاً خائفاً جاحظ العينين ولضعف الضوء أحسست كأن الحدقة بلغت بياض عيني كله. هل كنت ذئباً حينها أم قطاً صغيراً. لماذا يحدث هذا معنا؟!

أكاد أجزم أنها النهاية، أي نهاية هذه؟!

***

كل ما رأيته من تعذيب، وما ذقته من موت جعلني على يقين أن النجاة من براثن الفرع هي الموت فقط لا شيء غيره. أو ربما عبادتهم وصنمهم تحت كل ما يمارس من تعذيب وترهيب وحرب نفسية. لأغدو حجر دومينو في حساباتهم فأظهر ويلمع نجمي ومن ثم أسقط متى أرادوا ذلك.

الصراخ بحد ذاته كفيل بنبأ النهاية، نعم بالرغم من غياب الضباط والعناصر الذين لا صوت لهم ولا أثر ليخبرونا بما يجري.

يا إلهي ما هذا الغباء والسذاجة؟!.

كيف سيخبروننا؟!
وهل نحتاج من يخبرنا بما يجري بعد كل هذه الأصوات؟!
وهل الجلّاد متفرغ لإخبار باقي مسجونيه بما يفعل بزملائهم؟!
ومن يهتم لما يقلقنا أو يزعجنا؟!
مرّ الوقت بين صرخاتٍ تزلزل السجن، وهدوءٍ مريبٍ. لم أستطع النوم حتى الصباح وها أنا أضيف لأيامي التي لم أنم فيها يوماً جديداً. في الدنيا البعض يسترق السمع والبعض يسترق النظر ونحن هنا نسترق النوم.
فهل السرقة حلالٌ في مثل هذا أم تعتبر تجسساً وخيانة ولكم بحق من؟!.
بدأت أشعر بالإرهاق وانفلات الأفكار من رأسي تراخياً وتماهياً مع الليل.

***

في الصباح الباكر اقتادونا جميعاً إلى ساحة صغيرة، وقاموا بتشغيل المسجل على أناشيد وأغانٍ عدة بدءاً من النشيد الوطني السوري إلى أغاني مدح النظام ورأسه في الوقت الذي أمرونا فيه بالجري مع بعض الضباط والعناصر. لقد أشعلونا حماساً بالرغم من كل إرهاقنا وآلامنا.
مضت أكثر من ساعة ونحن على هذه الحالة حتى صرنا ربما من شدة علو صوت المسجل نردد الأغاني والأناشيد، وكأننا نؤمن بها ونصدقها!!.

كان بعض الضباط سعداء بما نفعله، وخاصة بأصواتنا العالية وشاركونا الغناء، أو لعلهم شجعونا وبدؤوا قبلنا.

أنهينا هذه الساعة؛ ليتقدم إلينا أحد الضباط:

– الله يعطيكم العافية شباب، أنتو بالفعل أشبال الأسد، واليوم صار وقتكم لتدرسوا وتتعلموا كيف تصيروا أسوداً في مدرسة القائد الرمز.

اشتعل التصفيق من العناصر، وصفقنا معهم وبدأ الهتاف:

(بالروح بالدم نفديك يا بشار ...) عدة مرات، وكنّا نُردّد، وكأنّنا عُدنا إلى المدارس.

ولكن لماذا، وكيف نُردّد لا أعرف؟

هل كنا مقتنعين أم لا؟

في الحقيقة لم أكن حينها أملك أدنى مجال للتفكير، المهم أن الضابط أرسلنا إلى الحمّام الجماعيّ؛ لنستحم من عرق الرياضة، وكأننا قبل ذلك على نظافة وطهارة. وكأنّ لاجراح ولا دماء على أجسادنا. قادنا بعض العناصر إلى هناك.

وعلى باب الحمام كان يقف عنصران ضخما الجسم مفتولا العضلات. منظر بالفعل مخيف. وفجأة أمرونا بخلع ثيابنا كلها.

بدأنا نتلفّت وننظر حولنا وإلى بعضنا البعض. مستغربون مِن هذا الطلب ثم كيف يتعرّى الإنسان أمام غيره؟!

جادلنا طويلاً ولكن الأوامر هي الأوامر.
بخجلٍ وخوف وبطء تعرّينا جميعاً نحن الذين قال عنهم الضابط أشبال الأسد كنا ثمانية أشخاص بعد أن تعرّينا دَخلنا الحمام. لم أكن أتوقع حماماً كهذا، إنه حمام فردي لشخص واحد لا تتجاوز مساحته المتر المربع كيف له أن يضم ثمانية أشخاص وعراة أيضاً.
ماهذا الذي يحدث. بالدفع والضرب أُجْبِرنا أن نقف جميعاً فيه متراصّين متزاحمين. كان الإحساس مهيناً جداً.
وقفنا ننتظر الماء. لم يكن هناك سوى مخرج علوي للماء (شاور). كان لزاماً علينا جميعاً أن نستحم. انتظرنا أكثر من ربع ساعة وروائح أجسادنا تزداد. وكلٌّ منا يضع يديه على عورتيْه من الأمام والخلف تجنباً لأي احتكاك. لم نكن نقوى على النظر إلى وجوه بعضنا بعضاً. فجأة بدأ نزول الماء في الوسط على جسد أحد المعتقلين، وأنا في إحدى الزوايا بدأت أشعر ببرودة الماء من خلال ارتداد الرذاذ المتطاير عن جسد الشاب، ربما أقل من دقيقة بدلّ الشاب مكانه ليحلّ غيره تحت الماء، وهكذا إلى أن جاء دوري عندها أحسست أن جبلاً من الثلج الثقيل يسقط على رأسي، الماء لم يكن يوزع رشّاً لأن صحن (دوش) الحمام لم يكن موجوداً. إنما فقط أنبوب (بوري) الماء المعدنيّ.

بدأت أشعر بالفعل بثقل الماء وأنا أحاول تحريك رأسي قليلاً محاولاً توزيع أثره وأذاه، ربما أمضيت دقيقة واحدة تحت الماء إلا أنها كانت عمراً بأكمله. وكأنّ جريانه الغزير مطرقة تحاول زرعك بلاط صلب أكلَ عليه الدهر وشرب.

وكأن الموت محتم عليك هنا، ولابد من سقوطك ميتاً تحت إحدى سبل التعذيب الغريبة. عندما انتهينا جميعاً ضربنا على الباب ليخرجونا ولكن أين هي ثيابنا؟ للأسف كما يبدو تم أخذها ولا شيء يغطي عوراتنا.

تم اقتيادنا في أقبية الفرع. ونحن الذين حسب قولهم أشبال أسد إلى مهجعنا، كنت في كل خطوة أشعر بالذل والهوان، أن تمشي عارياً بين الناس. إنها جريمة وذل كنت أسمع من يقول:

"لاحول ولا قوة إلا بالله".

ولكني لم أكن أقدر أن أرفع رأسي عن الأرض أو ألتفت يميناً أو شمالاً. لا يمكن أن أنظر إلى شخص فأراه ينظر إليّ؛ لأن نظرته تلك كفيلة بنسف ما تبقى من معنى للحياة والوجود. أن تمضي عارياً بهذا الشكل يعني أن سجّانك من الممكن أن يفعل أي شيء معك. فلا يمكن أن تتوقع شيئاً كهذا، حمّام ضيّق تستحم فيه عارياً مع رجال غرباء عنك، ثم تمشي عارياً في الفرع، ولربما الكثير من العناصر والمعتقلين رأونا بما نحن عليه.

أخيراً وصلنا إلى مهجعنا. كانت هناك على السرير بزة سجن بلون أزرق مختلفة عن تلك السوداء، التي ألبسوني إيّاها ساعة دخولي الفرع. بسرعة ارتديتها بسعادة وكأنني أنتظرها منذ قرون. وجلست لأعرف ما أفعل ولا قدرة لي على التفكير. فجأة دخل ضابطٌ ومعه بعض العناصر يحملون أكياساً.

وقال أحدهم: "كل واحد يشرّف لهون له خبزة وحبة بطاطا بسرعة".

وبصدق كان الخبز عفناً والبطاطا لا أعرف كم مضى من الوقت على سلقها، لتصدر عنها رائحة كريهة.

استغربت هذا بعد أن كان العشاء جيداً ليلة أمس، ولكن الجوع كان أكبر من التفكير وبسرعة الوحوش المفترسة أكلنا جميعاً ما أُعْطينا وللطعم حكاية أخرى، فلطعم عفن الخبز الممزوج بالبطاطا الخربة، شعور بشيء من السوء أكبر من الوصف، لكن الجوع كما يقال: كافر ووجب قتله.

نظر أحد الضباط إلينا وقال:

– "كيف الإقامة هون؟!، إن شاء الله عجبتكم؟!".

– أجبنا: "كثيرسيدي.. كثر خيركم".

– الضابط: حبايبي مافي شي من واجبكم.. شو ماعملنا نحن مقصرين.

– أجبنا بشكل متفرق: "عسلامتكم سيدي.. مابتقصروا".

– الضابط: "مين بحب السينما منكم".

– أجبنا: "كلنا سيدي.. كلنا".
– الضابط: "والأكشن".
– أجبنا: "أكيد سيدي".
– الضابط: "طيب حبايبي ...درسكم الأول فيلم سينما، وبث مباشر (لايف)".

وبالفعل اقتادونا إلى قاعة. جلسنا فيها على الأرض وشغّلوا التلفاز. ليبدو لنا قَبْوٌ عبر الشاشة. يا إلهي هذا القبو أعرفه جيداً، ذاك الذي قضيت فيه أيام التعذيب لماذا؟! لماذا؟!

بدأت أشعر بالخوف والذعر، وأنا أنظر وأترقب ماذا يمكن أن يجري؟

هدوءٌ مخيف أصابنا جميعاً. القبوُ فارغٌ تماماً لا أصوات ولا شيء. فجأة دخل ضابط مع بعض العناصر، إنّهم أولئك الذين عذبوني كما هم.

لحظات قليلة، وجاؤوا برجُلٍ شبهِ عارٍ. بدأت الأصوات تظهر قليلاً حين بدأ العناصر بِرَكْلِ الرّجُلِ بأرجلهم من جميع الجهات، وهو يصرخ.

كيف يتجمّع كلّ هذا الحقد على رجلٍ واحدٍ؟!

الركلات كانت تنهال عليه بشدة، ولم يراعوا بذلك لا وجهاً ولا عورة ولا شيء أبداً. صراخه كان شديداً جداً والوقت يمضي بطيئاً. وحده الضابط في قاعتنا كان ينظر إلى وجوهنا محاولاً إدراك خوفنا وذعرنا، أما نحن فكنا في حالة يرثى لها.

فجأة سكت الرجل عن الصراخ. توقف العناصر عن الضرب. أشعل الضابط سيجارته المعتادة. وما إن دخّن منها أول مرة وأتبعها بالثانية عميقاً، حتى قال: "صَحُّوه لها الحمار صَحُّوه".

كان دلو الماء جاهزاً، قام أحد العناصر بسكبه عليه. انتفض الرجل نظر حوله، ورأى ما رأى ثم وقع أرضاً من جديد وبدأ يصرخ.

الضابط: "قعّدُوه عالكرسي ورَبّطُوه".

وبسرعة فعلوا ذلك.

الضابط: "هات هالكمّاشة".

أحد العناصر: "حاضر سيدي".

ما إن أمسكها الضابط حتى توزع ثلاثة عناصر حول الرجل اقترب منه الضابط وضع فكي الكمّاشة حول الإصبع الوسطى ليد الرَّجُل وعندما أحكم إغلاق الكماشة شدّ بقوة منتزعاً إصبع الرجل؛ ليصرخ الرجل صوتاً لم أعهده من قبل. وببرود شديد كرر الأمر على اليد اليسرى مقتلعاً إصبعها الوسطى أيضاً، ازداد صراخ الرجل والدماء بدأت تسيل.

أما أنا فدموعي بدأت تسيل أيضاً أوشكتُ أن أنهار. الضابط أكمل على إبهامَيْ الرَّجُل بقسوة وبلا رحمة.

ونحن ننظر والخوف والذعر سيطرا علينا لدرجة لا توصف.

بدمٍ بارد أو بحقد فعل الضابط فعلته برَجُلٍ مهما كان ذنبه فلا يجب أن يعذّب بهذه الطريقة. في القاعتين لا صوت إلا صوت الرجل الذي تسيل دماؤه بغزارة شديدة. الشباب المعتقلون حولي أيضاً اغرورقت عيونهم بالدمع. لحظات عصيبة بالفعل ونحن لا ندرك إلى أين يمكن أن نمضي في هذه المحنة وهذه الأزمة.

شُلّت إرادتي أنا – ولعل الباقين مثلي – أصبحت شبه معدومة.

وبات من الطبيعي أن أستسلم أكثر، ولكن ماذا سأفعل؟ وقد قلت ما قلت وأكدت بأنّي سأفعل أيّ شيء. ماذا يريدون منا؟

يمضي الوقت في القاعة بطيئاً. انتبهنا عندما أطفأ أحد العناصر الشاشة التي لم ننتبه لها لفظاعة مشاهد التعذيب الوحشية ليقف أمامنا الضابط. ويبدأ الحديث عن الإرهابين حسب قوله، وما يجب على الجيش والدولة فعله من أجل تطهير البلاد منهم.

كلمات الضابط ومحاضرته الطويلة وتحت تأثير الخوف والذعر كانت درساً مُهِمّاً. درساً لن ننساه أبداً. فأيّ سوريّ لا يُقدّس النظام ويعبد الحاكم فهو إرهابي كافر، حتى الذين ماتوا قبل مجيء النظام ماتوا وهم كفار، هكذا كان الضابط يقول. كادت أن تنطلي شعوذته على عقولنا بعد حفلة التخويف والترهيب، شيئاً فشيئاً من الممكن أن نصدق أقواله.

الضابط هذا كانت لغته سليمة إلا أن أفكاره ومعلوماته لم تكن متسلسلة. أحياناً يتحدث عن الثورة والمخرّبين والإرهابيين. حسب قوله ثم يقفز إلى الثورة العربية الكبرى ثم إلى الحركة التصحيحية؛ ليعود إلى الثورة السورية الكبرى، ويقفز إلى الهجرة وكفار قريش. ليقول لك أن كلّ القيم والأخلاق جاءت عن نظافة الحاكم، وأنّ كلّ من كان ضدّهم كان كافراً زنديقاً. لا تُقبَل توبته بسهوله.

جملة (لا تقبل توبته بسهولة) جملة كبيرة مخيفة أحدثت أثرها الكبير في نفوسنا بعد أن سمعنا من الضابط سرده لتاريخ النظام في جولة طويلة جداً. فما الذي سندفعه لتقبل توبتنا. إن كنّا بالأصل مخطئين. يمكن اختصار كلّ هذا بأن الأنظمة القمعيّة الإستبداديّة عبر كلّ العصور تحتاج عبيداً لتجلس عليهم لا أحرار تعلو وتسمو بهم. أكثر من أربع ساعات والضابط يتحدّث ويُدخّن ويشرب الماء والعصير والشاي، ونحن ليس لنا إلا بلاط الأرض نجلس عليه. تصببت عرقاً كثيراً، بالرغم من برودة البلاط المتسربة عبر خلاياي، وكم نمّلت رجلاي، وبدّلت بينهما ومِلْتُ يميناً أو شمالاً.

والأمل بالخلاص والتحسّر عن كلّ كأس يضعها الضابط على ثغره. فعندما تشعر بالجوع والعطش، يبدأ التنازل شيئاً فشيئاً لتبقى حيّاً. الضابط كان يدرك ذلك ويشعر بعظمته، ويريدنا أن نحس بذلك بعد كل هذا الوقت. قيل لنا ستذهبون إلى الحمّامات حيث تغسلون ملابس الضابط. وبالفعل أخذونا

إلى هناك كان المكان دافئاً نوعاً ما ولكن لا غسالات فيه. ووزّعونا على عدّة مغاسل على نفس الصفّ، وجاؤونا بجرنٍ بلاستيكي ومنظف غسيل لكل واحد. لقد انتعشتُ أنا للمرّة الأولى عندما فتحت علبة المنظّف، وأخذت أرشّ في الجُرْنِ، وأسكب الماء، فوقها فأول مرة منذ دخول هذا الفرع القذر؛ أشم رائحة عطرة، رائحة تختلف عن رائحة القذارة، والرطوبة، والعفونة، والدم.

فجأة وزّعوا علينا أكياساً من أكياس النفايات لكلّ واحد كيس. على كل كيس ورقة لاصقة مكتوب عليها رقم. لم أكن أعرف لماذا هذا الرقم، ولكن بمجرد فتح الكيس بدأت أشك في أن هذا حتى لا نعرف من هو هذا القذر وأصحاب هذه القذارة. الألبسة في الكيس كلّها داخليّة قطنية بيضاء، ولكنّها مُلِئَت قذارة من كلَ ما يمكن أن يخرج من الرجل. أول مرة في حياتي أرى قميصاً داخليّاً مليئاً بالغائط.

كثيرة هذه الملابس ربّما كان نصيبي فيها ما يزيد عن العشرين قطعة. وكان علينا أن نعيدها نظيفة كما لو أنها جديدة. للحظة ما كنت سأرفض فجأة تذكرت ما مر بي، وما رأيت من تعذيب. كتمتُ أنفاسي وشددت أعصابي أمسكتُ كلّ الملابس ورميتها في الجرن ورحت أحركها وأنا مغمض العنينين: أحركها مع عقارب الساعة، و من ثم بعكسها دورة بدورة بيدي محاولاً أن أزيد رغوة المنظف؛ لتعلو الرائحة أكثر فأكثر، وأنسى بذلك

رائحة القذارة، بعدها رحتُ أمسك كلَّ قطعة وأحركها بكلتا يدي محاولاً قدر المستطاع تنظيفها، ولكن جُزافاً.

رُحْتُ أعيدُ كلّ قطعة إلى الجرن من جديد وأرش المنظّف من جديد مراراً وتكراراً، وبعد أكثر من ساعتين نجحتُ بنسبة مقبولة، أو أقل من مقبولة، العنصر الذي كان يراقبني، أجاز عملي، وطلب منّي غسل الملابس من أثر المنظّف، نعم فعلتُ ذلك، ولعلها أسهل مرحلة مضت، وبسبب المراقبة الشديدة والضرب والإهانة أحياناً من العناصر فلم أعرف ما كان نصيب كلّ من زملاء المعتقل أو زملاء المهمة القذرة.

بعد هذا اقتادونا إلى مهجعنا، وكنا قد أشبعنا إرهاقاً وإذلالاً.

ألقيتُ بجسدي فوق السرير بعد جرعة لا بأس بها من القهر ولا أدري أين دفنت عزة نفسي. حاولت أن أغفو قليلاً لكن ما مرّ بي كان يجثم على عقلي ويسيطر على جملتي العصبية ليبقيها في حالة غليان داخلي فلا راحة مطلقًا. بعد برهة من الوقت أحضروا لنا الطعام الذي لم أعرف ما وقته غداءً أم عشاءً، المهم أنه صحن برغلٍ بعدس مع بصلة لكل واحد منا.

الصحن كان من البلاستيك بلا ملعقة وحسب الأوامر يجب أن يرجع الصحن فارغًا وعلينا أن نأكل كلّ شي حتى البصلة بقشرها. وأما عن الملاعق فهذا ليس من شأننا (حسب قوله) اخرس وكُلْ.

وبالفعل خرسنا وأكلنا حتى قشر البصل لقد كان طيباً أو لربما كان طعمه لذيذاً مقارنة مع ما كنا نلاقي. أما البرغل فمن الطبيعي أن تجد بعض الحصى وربما حشرات طائرة صغيرة ضمنه ولكن لا بأس فكلّه سهل، المهم أنّه طعام.

البصل له مذاق مختلف – بدون خبز يخفف حدته – عندما كنت أغرز أصابعي ضمن الصحن ثم أرفعهن حاملًا من البرغل ما استطعت وأسبقه بقضمة من البصلة، لا شيء يمنعني من الجنون هناك.

انتهينا من الوجبة سريعاً وسلّمنا الأطباق فارغة من كل شيء تمددّت على سريري، وماهي إلا لحظات ولا أعرف ماهو الوقت حتى رحت في سبات عميق لأصحى جافلاً خائفاً على صراخ كما الليلة السابقة، ولست وحدي بل حتى باقي المعتقلين أصابهم ذلك وكأن الأمر مفتعل، وأنا أغفو قليلاً وأصحو.

حتى الصباح عندما دخل علينا الضابط مع عناصره لم يكن لدينا أدنى فكرة عن أي نوع من التعذيب يمكن أن نلقاه.

اقتادونا إلى الساحة للرياضة وبالفعل فعلنا كما أمس. ورددنا وهتفنا بشكل أفضل ومن ثم اقتادونا إلى المغاسل بشكل طبيعي وبعدها وياللمفاجأة، لقد أخذونا إلى غرفة الطعام، والمفاجأة الأكبر؛ أنّ لكلّ منا كأس شاي وقطعة خبز ومربى.

فطور يليق بالإنسان يجعلك تدرك للحظة أنّك مازلت من جنس البشر بالرغم من برودة الشاي، لونه الفاتح؛ لكونه من الأنواع التجاريّة على ما يبدو، إلا أنّه شاي لذيذٌ، في هذه الإقامة وهذا المستنقع حتى الخبز لم يكن جيداً ولكنه لم يكن عفنًا أيضًا، فالرّمد أفضل من العمى، كما يقال.

أكلنا بسرعة شديدة. وأردتُ أنا أتلذّذ بالشاي فلا أعرف متى ولا أين سأنال كأساً آخر. بعد أن انتهينا اقتادونا إلى القاعة عندما رأيت التلفاز فقدت القدرة على الإحساس والحركة أدركتُ أنّني سأشاهد درساً جديداً في التعذيب، وما إن جلسنا أرضًا حتى دخل ضابط جديد حَيّانا مبتسماً، قال: "هاليوم شباب مهمّ كثير إلكم وإلنا".

اليوم لازم نثبت لسيادة العميد أننا أشبال الأسد الحقيقيين، لازم نعبر عن ولائنا وانتمائنا لمدرسة القائد الرمز بشار حافظ الأسد.

قاطعناه جميعاً، بصوت جماعيّ ارتجّت له أركان القاعة: "بالروح بالدم نفديك يا بشار".

تابع الضابط:

"اليوم رح نشوف فيلم وثائقي من إعداد قسم التنمية السياسيّة، الفيلم عن القوى الإمبرياليّة الإستعماريّة العالميّة (أمريكا أنموذجاً)، اليوم رح نشوف كيف نشأت وبدأت تتوسّع وتستغل الشعوب وتحتلها وتنهب خيراتها في كلّ العالم، وكيف تدعم الصهيونية العالمية وإسرائيل وتدعم الإرهاب.

كل هذا رح نشوفو بالفيلم. المطلوب منكم تركّزوا منيح؛ لأن في نهاية الفيلم رح يكون اختبار لمعلوماتكم. واللي بكون فهمان أكثر راح يكافؤه سيادة العميد، واللي ماراح يحفظ كمان في له مكافأة بس غير شكل. بالتوفيق شباب". وبالفعل بدأ عرض الفيلم ليستمر لساعات طوال تحدث عنها بكل شيء وكل فقرة. هذا العمل كان يتسلل بأفكاره عبر حواسنا ليستقر في زوايا عقولنا. سيناريو العمل كان موجهاً بطريقة تجعلك تكره تلك الدولة أمام ما ترى من مجازر ارتكبتها خلال عقودٍ من الزمن على أراضيها وخاصة في فترة التمييز العنصري وفي دول أخرى احتلتها (فيتنام والعراق ....) هذا التاريخ الحافل بالإجرام، والتدمير، ونهب الشعوب؛ جعل مشاعر الحقد والكره تتأجج داخلنا، نوعاً ما مضينا مع ما نرى متأثرين منشدين إلى درجة كبيرة نسينا فيها ما نحن فيه من ظلم وقهر. لكن هناك نوعٌ من السم ربّما أو الحقن الأولية لتغيير آلية تفكيرنا فمن خلال العرض كان بين الحقبة الزمنية المعروضة والأخرى قول لحافظ الأسد أو لبشار الأسد وكأنهم ينصحون أمريكا التي لم ولن تسمع نصحهم بل زادت طغياناً واستعماراً.
كنت حريصاً، وربما بقية المعتقلين معي على حفظ كل ما يلفظ، وخاصة أقوال حافظ وبشار؛ لأني كنت على يقين شبه تام أن الأسئلة تكون مما قالاه.

انتهى الفيلم. جاؤونا بالماء، شربنا منه حتى ارتوينا. عندما دخل العميد بدأ الاستجواب الفردي. وأغلب الأسئلة كانت كما توقعت تماماً. فقط أحد المعتقلين فشل في الإجابة عن الأسئلة التي وجّهت إليه. لينصب عليه غضبُ الضباط والعناصر، بين شتمٍ وسبٍّ وضرب. اقتادوه خارجاً. وبدأ العميد يمتدحنا. ثم خرج ومعه الضابط. ثم عاد الضابط وشَغّل التلفاز. لنصدم جميعاً عندما رأينا زميلنا في قاعة التعذيب عبر الشاشة. ركلات كثيرة جداً. ثم قام أحد العناصر بإشعال كيس بلاستيك ليقطر على جسده العاري. والشاب يصرخ وبقي كذلك حتى انتهى الكيس وسقط كلّه مُذابًا على جسده.

منظر تقشعر له الأبدان، جحظت عيناي. نسيت نفسي حينها إن كنت أتنفس أم لا، وأنا أراهُ يصرخ مُستغيثاً، لكن لا حياة لمن تنادي.

فجأة أوقفوه بعد أن تشوّه صدره وبطنه وأرغموه على فتح فمه ليمسك أحد العناصر سكيناً حاداً وبعد محاولات عديدة ودفاع مستميت منه بإغلاق فمه إلا أنهم أجبروه وضربوه بشدة ولربما كسروا أحد فكّيه وأخيراً استطاعوا الوصول الى لسانه وقطعه.

آآآآآه لا أدري من صرخها ذلك الشاب أم أنا أم زملائي المعتقلين.

لكن ما يثير أنها خرجت مدويّة عالية اهتزت منها الأرض ومَن عليها. لقد قطعوا لسانه وكسروا فكّه. الدم شلال من فمه. غاب الشاب عن الوعي.

بدأ العناصر يرقصون حوله ويسخرون منه مرددين: الشعب بدو حرية ... الشعب بدو حرية...

ليضربه كبيرهم على ظهره: غني معنا ولك جحش ... يلا غني

ويتابعون: الشعب بدو حرية... الشعب بدو حرية...

يا إلهي ماهذه الوحشية؟!

كيف يتعاملون بهذه الطريقة مع الشاب الذي لم يعد يتحرك أبداً؟!

فقط دماؤه هي التي تسيل لتغسِلَ البلاط المليء بنتانة العناصر وقذارتهم. أظنّه بعد هذا بايع العجز إماماً مدى الحياة. فالشرر المتطايرُ من عينيه الداميتين ترك بصمته في ذاكرتي المزدحمة بالمشاهد التي أرهقتني.

أُغْلِق التلفاز. لا ندري بعدها ماذا حدث. الجمود والذعر سيّد الموقف. أما الرسالة فكانت واضحة جداً لا مكان إلا لعبد طائع، لا مكان في كل هذه الدنيا إلا للّذي ينفّذ الأوامر وحسب. عليك أن تنفذ ما أرادوا، وألا تتقاعس حتى يتبيّن لهم أنك حملٌ وديعٌ أو كما يقولون: "شبل من أشبال الأسد". ربما شهر كامل مرّ علينا في بين ترهيب و إذلال ما بعده إذلال في اليوم الفردي كنا نشاهد التعذيب و الموت أمامنا، ويبتكرون أنواعاً من التعذيب والإذلال لا ندركها إلا عندما تقع علينا. وفي اليوم الزوجي كنا نرى ونشاهد العديد من أنظمة العالم، وكيف تمثل وتظلم الدول الأخرى وتمارس الإرهاب أينما وجدت. و تبث سمومها في بلد تطمع في ثرواته، ومع هذه الفيديوهات

و الأفلام كان الحفظ ضروريًّا لسلامتنا، و خاصة أقوال حافظ الأسد وابنه بشار.

حفظنا تاريخ الدول، وسياساتها، وحفظنا معظم أقوال الرئيس الراحل والحالي، سقط بعض منا في الاختبارات، وأضافوا معتقلين لنا بدلاً منهم.

المهم أننا وصلنا النهاية خمسة أفراد، أو خمسة أشبال حسب قولهم. لقد أصبحنا على يقين تامّ بأنّ ما يجري في سورية هو مؤامرة كونيّة، وأنّ الدول التي شاهدنا أفلاماً عنها إنّما تمارس إرهابها في سورية، وتبثّ سمومها أيضاً بغض النظر عن هذه الدول عربية كانت أم أجنبية. لقد أصبحنا أشبالاً، ومجندين أفاضل جاهزين لخدمة النّظام مهيئين تماماً لفعل أي أمر.

هذا الذي يدافع عن البلد ويحميه وهوأصل المقاومة والممانعة والتصدي للهجمات الإمبرياليّة.

حفل التخريج لم يكن حفلاً عادياً فبعد أن اجتزنا الاختبار ذهبنا إلى حمامات تصلح للبشر، ومن ثم أعطونا ثياباً جديدة؛ ليكتمل يومنا مساء بسهرة مع الضابط، إنها الوداع حيث كنا سعداء جداً بقذارتنا بالرغم من ثيابنا النظيفة.

***

فالحقيقة أنّ كل من لا يدافع عن النظام هو إرهابي يجب قتله وانتهاك عرضه من أجل هذا. كانت الحفلة لذيذة ماجنة. فالعناصر أصبحوا خدماً لنا، أحضروا ما لذ وطاب حتّى مشروبات كحوليّة.

شربنا حتى ثملنا وضحكنا جداً متناسين كلّ شيء خارج هذه القاعة، ولما بلغ السُّكر مبلغه؛ أدخلوا علينا بعض المعتقلات ليرقصن عاريات. كنا حينها أشخاصاً آخرين فرحين بأجسادهن وهن يتمايلن رغماً عنهن. السُّكْرِ والنشوة والمتعة واللذة حينها كانت لا توصف، ولربما القذارة أيضاً لا توصف.

لا أعرف ولا أدرك كيف أخرجوهن ولا متى. إلا أني أتذكر أني كنت واحداً ممن أوشكوا على أن يقعوا عليهن. ولكن لا شيء من هذا حدث، لا أعرف لماذا، ولكن الحمد لله أن ذلك لم يحدث.

***

في فجرِ اليوم التالي أمرونا بالنهوض من الفراش والذهاب للاستحمام. وبالفعل فعلنا ذلك لنعود إلى قاعة صغيرة، ولا أعرف من أين دخل علينا شيخ ليصلي بنا الفجر إماماً. لقد أصابني الجمود لحظة رؤيته، شيخٌ يلبس

العباءة ويضع العمامة على رأسه ويقف بيننا في أقبية النظام بكل أناقته. بتّ أشك أني أحلم. بكل تواضع وطيبة كان ينظر إلينا: "السلام عليكم".

-: "وعليكم السلام".

- الشيخ: "من يقيم الصلاة....؟.

(نظر إليّ: أنت أخي تفضل).

بدأت أرتجف، ولا أعرف ماذا أفعل، وهل بعد كل هذا أتذكر إقامة الصلاة. من أين لي بشجاعة لأقف، وأرفع صوتي بها؟. تقدمت بخطوات بطيئة والجميع ينظر إليّ. كانت لحظات قاسية.

- ال ال ال الله أكبر الله أكبر، (وبدأتِ الدموع تنهمر من عينيَّ بغزارة حتى انتهيت).

لم أكن أعلم ما يحدث لي ولكن الكلمات كانت كافية بأن أبكي ومن معي بحرقة.

لأول مرة بعد هذه الفترة في المعتقل أحس بشيء من الطهارة، وأقف بين يدي الله، وأسمع قرآنه.

لحظات لا تنسى أبداً، ولكن ما الذي يجري لا أعرف. وإنما كنت سعيداً بذلك. الشيخ كان يجوّد بأسلوب ماهرٍ حتى أن دموعي ما توقفت أبداً خلال الصلاة.

للسجود لله نكهة مختلفةٌ وحالةٌ وجدانية فيها من الشوق الكثير وفيها من البراءة من كل شيء من الدنيا. لقد أسقطت عني كل الهموم ما لدي من حزن وتركتني بين يدي الله بما أحمل من دموع وحب. لحظات ما وددت أن تنتهي أبداً. لكن لكل قدر نهاية.

الشيخ بعد أن أنهى الصلاة التفت إلينا وبدأ يذكر ويسبّح ثم دعا لنا ولعموم المسلمين ثم أردف بالنصر لسورية الأسد وأَمَّنّا خلفه.

بعد ذلك تم توزيع عدة كتب علينا وكان المطلوب منا دراستها وفهمها. وأيضاً حفظ خمسة أجزاء من القرآن كحدٍّ أدنى. ومنذ تلك اللحظة لم يكن لدينا أي مكان سوى هذه القاعة للصلاة والدراسة والمناقشة مع هذا الشيخ وعدة شيوخٍ آخرين، ومهجع النوم إضافة إلى قاعة الطعام. وبات تعاملهم معنا جيداً أكثر من قبل، ولم تعد هناك أية إساءة يمكن أن نصادفها ولكن يجب أن نحفظ ونعي فهذه قواعد لا بد منها.

الكتب التي قدموها لنا كانت متعدّدة، فمنها مختارات من سنن البخاري ومسلم، وابن ماجه، وكتب عن الجهاد، وأصول القيادة الإسلامية، الفتوحات الإسلامية، وآراء شيخ الإسلام ابن تيمية، والكثير من هذه العناوين، بالإضافة إلى كتب عن الثورات، والصراع بين السلطة والشعب. في الحقيقة غريب هذا الأمر كيف يمكن أن تُعطى هذه الكتب لنا من خلال النظام، وفي أقبيته؟!.

الشيوخ الذين كانوا يناقشوننا في الكتب كانوا يتعمّدون أيضاً الحديث عن أسماء كلّ الفصائل المعارضة المقاتلة في سوريّة، الإسلامية منها وغير الإسلامية.

ولكم استغربت الأريحيّة في الحديث والشرح. وكان من الضروري أن نعرف كل هذا وعلى عقولنا أن تستوعب. وتحفظ كلّ كلمة وكلّ شيء، ومن البديهي أن نتعرّض للسؤال عمّا نحفظه وفي نهاية كل يوم هناك اختبار شفهي وكتابي وعليك أن تحصل على علامة أعلى من ٨٠٪ حتى لا تعيد الحفظ.

بدأنا بالفعل نتعود على ذلك والأيام تمضي وصرنا نلتزم بصلواتنا أكثر فأكثر فالصلاة في القاعة لا يمكن التخلف عنها. وقد قطعنا شوطاً كبيراً في حفظ وفهمِ الكتب التي بين أيدينا.

***

في الأسبوع الثاني من هذه المرحلة حوالي الساعة الحادية عشر صباحاً دعونا إلى قاعة أخرى كانت تحتوي كراسي بعددنا، جلسنا ننتظر، وقبالتنا على الجدار لوحٌ بلاستيكيٌّ يمكن الكتابة عليه بالحبر، فجأة دخل الضابط ومعه الممثل المعروف (أ)

هذا الممثل الذي تربينا صغارًا على متابعته، وحفظنا أدواره بكل أنواعها التاريخيّة والاجتماعيّة والكوميديّة.

ترى ماذا يفعل هنا؟!

وما دخلنا بالتمثيل كل هذا ذهب في أول الكلام؟!

– الضابط: "يا بني اليوم معنا متل ما بتعرفو النجم الشهير (أ)، وهو رح يكون معكم ويساعدكم، لحتّى تقدرو تطلعوا مواهبكم الإبداعية. بِدّي تتفاعلوا وتتجاوبوا معه، وتتعلموا منه، لأنه خبير وقدير..، مارح طوّل عليكم هي الأستاذ النجم معكم".

– الممثل: "صباح الخير والله يعطيكم العافية شباب ممكن تستغربوا في البداية ليش أنا هون. بس أنا بَقُلكم لا تستغربوا شي، نحن كلنا جنود سورية الأسد، ولازم نتعاون مع بعض بكل شي، سيادة العميد خبّرني أنّكم موهوبين، مشان هيك أنا رح وَقّف معكم، وأعطيكم (كورس) كامل عن فنون التمثيل والأداء المسرحيّ. ممكن نبقى فترة مع بعضنا لحتى نتعلم ونصير محترفين. مومهم الوقت بقدرما مهم أنّنا نتعلّم".

وبالفعل بدأ الممثل يتحدث ويشرح ثمّ استمع إلينا جيداً، وحاول أن يستخرج ما لدينا. وصرنا بين قاعة الصلاة وقاعة التمثيل والأيام تمضي، وكأنّنا في اختبارات قاسية في المصلى ومن الشيوخ والكتب حفظنا وتعلمنا الكثير الكثير.

ومع الممثل قضينا أياماً ممتعة وصعبة معاً. كسرنا الرهبة وحاجز الخوف في التمثيل وأصبح من السهل جداً أن نقوم بأيّ دور. أمام أي شخص دون أيّ حرج أو خجل. أسلوب الخطابة لدينا أصبح رائعاً ومع هذا كله فقد طلبوا منّا أن نُرخي ذقوننا حتّى طالت وغيّرت من ملامحنا إلى درجة كبيرة. بعد شهر عن هذا أعطانا الممثل عملاً مسرحيّاً كان المطلوب منّا أداءه. لم يكن العمل بسيطاً بل كان اختياره أو كتابته عن قصد. حيث يدور بين أفراد من كتائب عدّة للمعارضة، وعلى كل منا أن يثبت أن كتيبته على حق حتى وصلنا إلى مرحلة دار الاشتباك بيننا.

ووصلنا إلى مرحلةٍ أشهرنا فيها الأسلحة ضدّ بعضنا (لم تكن أسلحة إنما ألعاباً).

الممثل الذي دربنا بدأ يشعر بالسعادة والفخر وهو ينقّل ناظريه بيننا وبين الضباط الذين جلسوا يشاهدوننا في يوم التخرّج ذاك.

الغريب في المسرحية كان أغلب النصّ يعتمد على ارتجالنا مما نحفظ من سور وأحاديث وفتاوى. عندما أنهينا المسرحية صفّقوا لنا وحيُّونا بشدّة على ما أنجزنا؛ ليأتي الممثل ويقف أمامنا، ويقول: "أبدعتو شباب.. أنتم الآن أروع ممثلين. يعني فينا نقول ممثلين محترفين "؛ ليأتي الضباط ويسلّمون علينا بكل إكبار وإعجاب.

نعم خلال هذه الفترة حفظنا الكتب ونجحنا في التمثيل ولكن ما الذي ينتظرنا بعد. عندما صليّنا العشاء ذلك اليوم في القاعة دعا الشيخ لنا كثيراً بالتوفيق، ولكن لم نكن نعي لماذا هذه الدعوات. إنما شعرنا بشيء من الراحة. عدنا إلى مهجعنا ورحنا في سبات عميق بعد يوم شاق وعمل تكلّل بالنجاح.

***

أحسستُ بحرارة وجهي المنبثقة، بدأت أتلمّس، بالفعل أنا على فراش حقيقي، أحرّك يدي أتلمّس الوسادة الغطاء، يبدو المكان مختلفاً عن المهجع، فتحت عينيّ لم أصدق أنني في غرفتي، قفزت بدأت أركض أدور، ذهبت إلى المرآة نظرت إنه أنا مع بعض التغيير في ملامحي.
كان الوقت بعد العصر حيث كان شباك غرفتي من جهة الغرب تضربه الشمس عادة.
رحتُ أركض، وأبحث عن تفسير لما يجري. أسرعت باتجاه الصالة بحثاً عن أخويّ، لم أجد لهما أثراً، كنت أظن أني أسمع صوت المباراة بين الكرامة والاتحاد، وهما في مُشادّة كلامية وتوتر بينهما، ولكن لا أحد.
هرعت إلى المطبخ، وقفت أمام الباب، كنت أظن أن والدتي ستلتفت إلي، لكنها لم تفعل اقتربت قليلاً حتى وصلت إلى المجلى، أردت لمسها لقد

عدت طفلاً أمسك بطرف ثوبها، وأنادي عليها، وهي تنظر إليّ مبتسمة. وترشقني ببضع قطرات من الماء. نظرت جيداً في المطبخ لم تكن والدتي. الغبار هنا يملأ المكان، بالإضافة إلى الفوضى في كل مكان فيه، وكأن لصوصاً مروا من هنا. عدت بحثاً عن أبي وأمي في غرفة نومهما في طريقي سمعت صوت أبي يقرأ القرآن فرحت وعجلت إليه لأقبل يديه فيرضى. فتحت الباب بشدة. ولكن الغرفة خربة بكل ما فيها ولا أثر حتى لطاولة وكرسي أبي. عدت إلى الصالة جلست وبدأت أستعيد ما كان يجري معي لأصحو، وأدرك أني كنت معتقلاً، وأن أبي وأمي في الأردن، وأخي الكبير غرق في البحر، وأخي الأصغر في ألمانيا.

رحت أتأمل أرض البيت بحثاً عن تفسير عودتي كأقل تقدير. لا شيء يبدو واضحاً حتى وصلت غرفة نومي فوجدت آثاراً لبساطير عسكرية. وقطعة قماش كانت على السرير قرب المخدّة، وكأنها تحوي مادة مخدرة. يبدو أنهم أعادوني مُخَدّراً دون أن أعي شيئاً.

عدت إلى الصالة، فتحت التلفاز (الموضوع جديداً في البيت) تابعت الأخبار كلها على الفضائية السورية، وقناة سما، والميادين، كنت سعيداً بانتصارات الجيش العربي السوري، استمتعت، وتمددت على الأريكة، وأنا أتابع، ورحت في نوم عميق جداً.

كثير من الضجيج في رأسي، وأصوات التعذيب التي ما تلبث أن يرتد صداها من جهة ما، صرير أبواب الزنانين، صراخ، وشتائم الضباط في وجوهنا، الشيوخ، الممثل، زملائي في المعتقل، كوابيس تصارع بعضها في رأسي.

وفجأة صحوتُ على رنين الهاتف.

– أحمد: "آلو".

– الطرف الآخر: "مرحبا أحمد.. كيفك".

– أحمد: "أهلين. الحمد لله مين معي؟".

– الطرف الآخر: "مو مهم.. اسمع منيح. في عندك بخزانة الملابس من فوق ظرف أبيض فيه مئة ألف ليرة. بتاخذهم بتقسّمهم أربعة أقسام، وبتحمل حالك وبتطلع من البيت. بتتسلل شوي شوي".

– أحمد: "وين اتسلل وليش ؟؟!!".

– الطرف الآخر (يصرخ بلهجة آمرة): "أنت عليك تنفّذ وبدون علاك".

– أحمد: "حاضر".

– الطرف الآخر: "هي مهمّة وطنيّة.. مثل ما قلت لك بتسلل وبتهرب من الحاجز الأمنيّ إللي براس الشارع، وبس تدخل المنطقة (ج) بتلاقي سيّارات (بيكابات) نقل، بتتّفق مع أيّ واحد يوصلك لحماة".

– أحمد: "شو سيدي. ليش لحماة. شو بدي أعمل ؟؟!!".

– الطرف الآخر: "شوف ولا جحش.. بتنفّذ بدون أي سؤال. دير بالك تلعب بديلك، وإلّا قسماً بالله بنخليك تتمنّى الموت. بقلّك مهمّة وطنيّة، يعني بتنفذ وبدون فزلكة. فهمان ولا نجيبك عنّا نفهمّك".

– أحمد: "مفهوم سيدي مفهوم".

– الطرف الأخر: "موبايلك اللي بيدك بس يقول ألو علينا. أي مكالمة بتحذفها وإللي بسألك بتقول: شبيّحة أخذوا موبايلي وأعطوني هدا إللي ما بعرف من أي قرن".

– أحمد: "حاضر سيدي".

– الطرف الآخر: "الكلام بتنفّذ كما هو، وما تخاف نحن معك متابعين خطوة بخطوة. وأيّ شي تتعرض له رجالنا بتخلصّك. نصف ساعة تغادر البيت، وما تاخذ شي من أغراضك. نتواصل بس توصل حماه".

– أحمد: "أمرك سيدي أمرك".

أغلق الهاتف فجأة فصدمت وصمتت، لا أدري ما أفعل وأنا أفكّر في الحوار.. وفي المهمة..

***

جسمي بدأ يرتجف، كدتُ أنسى نفسي، حتى تذكّرت الوقت الذي حدده لي، فأسرعتُ إلى خزانتي فتحتُها وجدت الظرف، وبسرعة أخذت النقود ووزعتها كما طلب منّي.

***

خرجت من البيت بهدوء كانت الساعة تشير إلى العاشرة والربع ليلاً، نزلت درج العمارة بالرغم من شدة الظلام فلا كهرباء مطلقاً، وصلتُ الشارع حيث لا ضوء إلا ضوء القمر.

من المستحيل أن تلاحظ الكثير من الأشياء والحذر مطلوب. مشيتُ مسافة لا بأس بها وأنا خائف كثيراً، محاولاً قدر المستطاع ألّا ألْفت انتباه أي أحد في الشارع، تبدو بعض البيوت مضاءة وبعض الأبنية أيضاً، وبعضها كأبنية مهجورة.

نسيمٌ الهواء البارد في هذه الحقبة من الليل، قد يُحدثُ قليلاً من الأصوات في هذه المدينة، التي لا أعرف كيف تغطّ في سبات، أو في موت بعد أن كانت لا تنام أبداً.

دمشق لم تكن تنام أبداً. كانت تفيض حياةً على كل الدنيا، والآن هاهي مغلقة بستار من الظلام. الشارع الذي أتسللُ من خلال أطرافه، كان كشريانٍ في جسم حيّ، لا يمكن لدمائه أن تتوقف، ولو لأقل من ثانية. يمكن أن

أقول أن دمشق كانت جسداً حيًّا دماؤه أهلها يبثون فيه الحياة. إلا أن ما يحدث لا يتصوره عقل. ولكن إلى متى؟!

من بعيد أدركت حاجزاً للنظام من خلال الأضواء المتلألئة وحركة العناصر. أخذتُ الجهة اليمنى له، سالكاً طريقاً فرعياً. وتابعت بحذر شديد بين الأبنية المتجاورة، حتى تجاوزته لمسافة لا بأس بها، وبالفعل وصلتُ المنطقة المتفق عليها، وجدت عدة بيكابات، أسرع إليّ أحدهم. قائلاً: "أهلين حبيبي ...، بدنا راكب واحد عادلب يلا..".

– قلت: "أنا رايح ع حماه".

– السائق: "ولا يهمّك عيني بنزلك بحماه. والأجرة خمس وعشرون ألف".

– قلت: "مافي مشكلة اتّفقنا".

– السائق: "الدفع مُقَدّم ..... بتعرف في كتير دوريّات، وكتائب والكلّ بدّه. ونحن بدنا نرضيهم".

– قلت: "تكرم".

– السائق: "الله يكرمك يا أكابر..، شو إنت مُنشق ولا مدني".

نظرت إليه باستغراب، وأدركتُ أنّه ثرثار جدّاً.

– أجبت: "مدني. بس ياريت بسرعة".

– السائق: "يعني إنت هربان من شي جريمة قتل ولا نصب ولا اغتصاب؟، هالأيام كثرت جرائم القتل والنصب كم واحد قتلت، ولا سرقة ونصب ..

بالله عليك كم مليون؟، إذا هم معك أنا بأمنك لوين مابدك حتى لو لألمانيا، تعرف نحن شغلنا عالطريق تعرفنا عكتير ناس وكتير قبضايات بتأمّن الناس بالبحر بس كلّه بالسليم، وحياة الأوليا والصالحين كلّه مؤمّن، ... بس إذا اغتصاب ما بحب ادخل بهيك أشياء، يعني اعذرني تكون المستورة حامل وأنت تركتها. عكل حال مو مهم، اللي بدك إياه أنا خدام شواربك، سيدي وتاج راسي أنت".

بدأت أغضب ثم تمالكت نفسي وقلت له: "أخي أبو ...".

– السائق: "محمد.. أبومحمد... الله يخليلك ولادك".

– قلت: "يا أبو محمد ممكن نتيسر قبل ما يطلع الصبح ويبلش الضرب".

– السائق: "لك شو بك يارجل..، نحن نمزح..، نهزّ الورد لنشمّو. يلا شباب عالسيارة، والفاتحة عنية التيسير".

لم أكن أتوقع حينها ذلك المنظر، أكثر من عشرين شاباً، ورجلاً في تلك السيارة (البيكاب)، جلس في الأمام اثنان إلى جنب السائق، وتقاسمنا نحن البقيّة جميعنا الصندوق الخلفي للسيارة متزاحمين بشكل مزعج، بدأت أنظر في الوجوه، وأتساءل:

"هل لكل واحد منهم حكاية كحكايتي، أم لكل حكايته التي لا تعرف كيف بدأت ولا كيف ستنتهي".

الكثير من الأسى والهم، وربما الحقد في هذه الوجوه، وخلفها السوريون المعروفون بأناقتهم لم تعد تلك سمة لديهم، الشعر الطويل الذقون الطويلة أيضاً، الألبسة الكثيرة وغير المتناسقة. الأحذية شبه البالية. كيف أصبحوا كذلك وهم الذين كسوا العالم، المنتجات السورية كانت الأجمل والأنسب والأنيقة والمعروفة على الأقل في المجتمعات العربية. والسوري معروف بأناقته ووسامته، كيف صرنا هكذا؟!

في هذا (البيكاب) الصمت سيّد الموقف في وجوهِ مِنْ ربما لا حياة بهم.

أما السائق الذي يبدو من خلال نافذة السيارة الخلفية يتكلم ويحرك يده اليمنى.

-: "يا إلهي ما هذا الرجل وكم كرهته، على ما يبدو أنه متمرسٌ في هذه المهمة، ويعرف كيف يجتاز كل الحواجز التي يمر بها دون أن نتحرك حتى".

من أول الطريق وقبيل كل حاجز (نظامي أو معارضة) وهو ينبهنا ويقول: "ما حدا يتحرّك ولا يحكي شي. أنا أبو محمد ملك الطريق، بعرف كيف أنجّيكم بدون ما تنزلوا أبداً".

وبالفعل كان ينزل، ويرضي مسؤول الحاجز، ولا أعرف كيف ولا كم من الأموال يدفعها لقاء ذلك، وكم يجني هو لنفسه".

تجار الحرب موجودون في كل زمان ومكان. عندما يقول:

"أنه قد يوصل الشخص حتى ألمانيا، فهل هذا يعني أنهم عصابة أو سماسرة، وأنهم تجار بشر، ولعل هذا جزءٌ يسير مما يجري. والغريب في الأمر، كيف يمرّ على كل هذه الحواجز دون أية عملية تفتيش؟".

في الحقيقة في تلك السيارات الكثير مما لا يمكن أن يخطر على بال الإنسان، بدءاً من السيارة نفسها والسائق، وحتى الركاب والطريق التي لم تكن الطريق الرئيسية بين المحافظات والظلام المحيط بها.

بدأت رجلاي تؤلماني من الوقوف ولكن لا يمكن لأحد أن يجلس أبداً فنحن بالكاد واقفون، ولكن من الممكن أن أجعل ثقلي على رجل واحدة، وأبدل بين رجلي بين الحين والآخر، وهذا ما كنت ألجأ إليه، خلال أكثر من خمس ساعات في هذه الطريق. أكاد أجزم هنا أن الأرض تنجذب إلي جاهدة للمس رجلي الأخرى لماذا لم تتركني أرسم ثقلي كيفما شئت.

أحسست بأحدهم قد لامسني من يميني، اقترب من أذني، وهمس بهدوء: "معك قداحة؟".

-: "لا ما بدخن".

فأخرج سيجارة وولاعة (قداحة) من جيبه أشعل سيجارة، وأعطاني إياها قائلاً: "دخن يا أحمد دخّن".

بهتُّ عندما نطق اسمي، ولكن خشية أن أثير أية ريبة وشك أخذتها منه، وبدأت أدخن وأنا أنظر إليه، فأخرج سيجارة أخرى وبدأ يشرب.

– وقال: "حماه كثير حلوة..، بس إدلب أحلى ....، رح ترتاح بإدلب".
– قلت بهدوء واستغراب: "إن شاء الله".
وصمتتُ قليلاً وأنا أتساءل في نفسي: "كيف عرف عن وجهتي إلى حماه؟!".
قاطع صمتي، وتساؤلي: "خلي معك باكيت الدخان بتتسلى فيها".
فجحظت عيناي، وأنا مستغرب من كلامه وفعله أشدّ الاستغراب.
– تابع: "مثل ما عبقلك بتحتاج إلها كثير".
– سألته: "ليش ؟؟!!".
– اقترب من أذني وهمس: "خُذها وبلا علاك..".
ثم ابتعد قليلاً وقال بصوت أعلى: "الدخان هو الوحيد إليَّ بنسينا همومنا ... دخن دخن".
تناولت (الباكيت) منه، ووضعتها في جيبي ورميت سيجارتي بعد أن كدت أختنق بها.
لم تمض خمس دقائق من حديثنا، حتى توقفت السيارة، وقال السائق: "اللي بدو ينزل عحماه.. يلا حبيبي الحمد لله عالسلامة .. ولما بدك ترجع عالشام تعال لهون وانتظر..".
نزلت ولا أعرف ما أفعل.

– وتابع قائلاً: "شايف هذا الطريق (وأشار الى الغرب) خليك دغري بتوصل لمعان (معان: قرية في ريف حماه الشرقيّ) ومنها يمينك على (مورك: بلدة في ريف حماه الشرقي)، وشمالك على صوران (صوران: بلدة في ريف حماه الشرقي)".

فهمت من كلامه. يمين على مورك وشمال على صوران.

– قلت: "الله يعطيك العافية عمي أبو محمد .... يعطيك العافية".

– قال: "أهلين ببعضنا... سلم سلم..".

– قلت: "وعليكم السلام".

تابعت السيارة طريقها، بينما أهم بالمضي في هذه الطريق الغريبة، مناطق لم أدخلها من قبل بالرغم من كوني سوري. ولكن الفجر بدأت تلوح معالمه وهذا ما جعل من السير أسهل، وللحذر كان عليَّ أن أمشي بمحاذاة الطريق المعبّدة لاعليها خشية أية دورية تابعة لأية جهة كانت، فجعلتها عن شمالي ومضيت.

تابعت المشي، لعلي أصل صباحاً باكراً، قبل أن تبدأ الطائرات،وما يتبعها من قصف، أو معارك قد تحدث.

حتى الآن يبدو الجو هادئاً إلا من زقزقة العصافير، وما أجملها في بلادي، وكأنها تنشد النور تنادي عليه وتسدل بصوتها عتمة الليل مع كل ما فيه، الهدوء والرطوبة الخفيفة في بلادي وانبلاج الضوء شيئاً فشيئاً مع جوقة

العصافير يجعلك تشعر بالحياة وبرغبة عارمة بالبكاء على حالنا، ربما نحن في الجنة، ولكن من الذي لوّثها ومن الذي أحرق أرضها وعاث فساداً في حقولها. من؟!

وأنا أسير في طريقي دون أن أعلم إلى أين وماذا أفعل حتى الآن، لكن الفجر وما فيه من سحر يبعث الأمل بالحياة، إنها بلادي، بلادي... فأن تسير بين كل هذا السحر والألق في بلادك يعني أنك في الجنة ... الجنة التي خُلِق السوريين بها ولها.

***

فجأة بدأت تلوح بعض البيوت أمامي أدركت أنّها معان. فجعلت القرية على شمالي ومضيت في طريق ترابية ضيقة نسبيّاً ومتعرجة فيما بين المزارع ، تنتصب على ترابها أشجار بتناسق مدهش، عارية من أية أوراق على جذوعها، ومنسقة من الأعلى كحضن أم دافئ، كبيت من بيوتات الريف السوري، اتّضح لي فيما بعد أنّها أشجار الفستق الحلبي، تنتشر على مساحات واسعة لم أستطع تحديد نهاية لها، بدا لي أنّ المنطقة مناسبة جدًّا لمثل هذا النشاط الزراعي النّادر، لحساسيّة هذه الأشجار لطبيعة التُربة

والطقس الذي تنمو فيه، والفستق الحلبيّ مادّة مطلوبة في الأسواق وأسعارها باهظة في دمشق، ولا أعرف إن كان السعر هنا أيضاً كذلك.
الطريق طويلة نسبيّاً موحشة في مثل هذا الوقت؛ لخلوّها من العابرين، بين الفينة و الأخرى أتعثر بحجر ناتىء أو تغوص إحدى قدميّ عميقاً فيما يُشبه الحُفَر من آثار عجلات الجرّارات الزراعيّة، نصف ساعة من المشي المتواصل تنتابني مشاعر متناقضة، اضطراب داخليّ يجلعني أشعر بانقباض قلبي، لجهلي في جغرافيّة المنطقة هذه، أصوات نُباح الكلاب تأتي من بعيد، وأحياناً أجفلُ من كلب حراسة يفاجئني وأنا أقترب من مكانه بنُباحه الحادّ، ويشدّ بقوّة سلسلة القيْد الحديديّة التي تربطه محاولاً التفلّت منها، أرى إطلالة بيوت القرية تلوحُ من بعيد، خيوطٌ من طمأنينة تتسرّب إلى داخلي؛ تبثّ ارتياحاً مؤقّتاً، ولا تستطيع إنقاذي، قلقي المتولّد عن مُهمّتي المجهولة وقد قادتني إلى الأماكن التي لم ترها عيني من قبل.
حواسي مستنفرة بأقصى درجات التأهّب، في كلّ خطوة أنتظر مفاجأة ربّما تكون نهايتي فيها، وأن أسيرُ على كفّ عفريت أتخيّله ممسكاً بوسطي ويجرّني إلى مصيري المحتوم، نُسيْمات الهواء العليل رفيقة بوجهي، لم تستطع انتزاع هواجس الخوف من قلبي، ولا أن أرى شيئاً غير جُثتي مُجندلة ممرّغة في التراب، تفوح منها روائح العفن ولا يستطيع أحدهم الاقتراب منها وأخذها للدفن، وكأنّي في لحظتي هذه أشعر بأنياب الكلاب و الذئاب

تنهشني بنهمٍ متناوبة مع القطط الأقل حضوراً في حضرة الذئاب و الكلاب، سرحت أفكاري إلى ما قبل أيّام، أستعيد القاعة التي احتضنت ترويعي وأنا أنظر إلى زميلي المعتقل الذي فشل في الإجابة عن الأسئلة والعسكري يتقدّم بقسوة وغلظة وهو يحمل الكمّاشة ويقطع يده، الدم النازف من فم زميلي و العسكري يكسر له حنكه لإجباره على فتح فمه ليسقط مغشيّاً عليه إثر قطع لسانه، تتلبّسني نوبة خوف بجرعة زائدة؛ شددتُ همّتي للوصول إلى القرية متناسياً المجهول الذي ينتظرني، مهما كانت الظروف فأنا الآن على قيد الحياة معافىً في صحّتي لايمكنني المقارنة مع الصور الفظيعة المحتزنة في ذهني عن المعتقل، سأمضي بكلّ إصرار لعلّ سِهام الموت تخطئني.

***

ثانيةً استنفرت كلاب القرية وأنا أجتاز البيوت المتطرّفة ببعدها عن مركز قرية (معان)، على ما أذكر من روايات الأهل، وأحاديث العامة في فصل الربيع يسرع الناس إلى حقولهم باكراً، يعتنون يومياً بالأرض وما فيها من أشجار طوال الشهور الدافئة. لكن المشهد يبدو مختلفاً هنا. وكأن الناس غير الناس، أين الفلاحون، أين هم؟!

بدا لي قطيع من الغنم يخرج من القرية، يظهر بشكل واضح شيئاً فشيئاً، يقودهم كلب حراسة، وخلفه تماماً يبدو كبشٌ ضخم في عنقه جرس يقطع سكينة المشهد، وخلف الجميع شابان. رحت أترقب منظريهما، يدخنان بشدة أو لعل دخان السجائر مع الرطوبة والبرودة في شهر نيسان ما يجعل من سحائب الدخان تتكثف متلبدة في فضاء عاتم. إنهما يقتربان باتجاهي، ملامحاهما تتضح أكثر، عباءة طويلة وفروة، وماذا على الكتف، إنها بارودة كلاشينكوف، لكل منهما، يجب أن أحذر منهما.

تواريت خلف جدار لغرفة قديمة وأنا أرتعد. الكلب أحس بي فراح ينبح، جفل القطيع، بدأت أرتعد خوفاً، الشابان يلتفتان يميناً وشمالاً لمعرفة علام ينبح كلبهما.

– أحدهما: "اطلع.. مين إنت؟".

جحظت عياني ولم أعد أقوى على التنفس، رجلاي ترقصان وركبتاي تصطكان ببعضهما خوفاً.

– الآخر: اطلع أحسن، ما أفرغ هالبارودة براسك (يا رب ... يا رب... أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله).

قلتها في سري بذعرٍ شديد، حتى أني لم أذكر إن كنت حركت إصبعي حين تشهّدْت أم لا!

صوت خطواتهما يقترب مني، ولم يعد هناك مجالٌ للحياة، فجأة سمعت صوت تبوّل أحدهما ما يقارب الدقيقة على الجدار الآخر للغرفة. وعاد وأشعل سيجارة أخرى، وقال للآخر: "هيْدا الكلب مخرّف وجبان...، لازم نجيب غيره."

– رد الآخر: "خايف يصير فينا متل الشعب السوري".

– قاطعه الأول: "ما بسمح لك...، كلبنا أشرف بكتير من كلبهم".

– رد الآخر: "أي أكيد مو كل الكلاب سوا".

وعلت قهقهاتهما وسط هذا السكون، وتابعا المسير بعيداً عني.

تنفست الصعداء، واستعدت ما تبقى عندي من رغبة في الحياة، ثم انتظرت ما يقارب ثلاث دقائق حتى غابا نهائياً، وتابعت طريقي مستعجلاً، لئلا أرى غيرهما، وقد تركت القرية هادئة في راحة وأمان. وأنا أمضي على التراب موازياً للطريق العام، وصلت إلى مفترق طرق. ولا أعرف ما أفعل زاوية بسيطة بين الطريقين ولكن لكلٍّ اتجاه. أحدهما يتجه شمالاً والآخر جنوباً.

هذا المشهد يشبه إلى حد ما ما يقوله خبراء التنمية البشرية بين الفشل والنجاح، ولعل في الفانتازيا التاريخية شيء من هذا. في المعتقل كانت كل كلمة محسوبة علينا وقد تودي بحياة قائلها. ماذا عن الخطوة هنا؟! أليست محسوبة أيضاً؟!

كيف وضعت نفسي في هذه الورطة، ماذا لو وقعت بأيدي الميليشيات الإيرانية أو اللبنانية، ماذا سيفعلون بي؟

لعلهم سيجرمون بي ويمثلون بجثتي بمجرد أني شامي، هؤلاء الأغبياء يبحثون عن ثأر منذ أكثر من ألف سنة، وكأن كل سني هو يزيد أو معاوية. والغباء أنهم يعتقدون أنهم يحبّون آل البيت أكثر منا.

ولكن ماذا لو سقطت بقبضة جيش الدفاع الوطني؟ ويلاه من نهاية على أيديهم. ومن سيصدق مقولتي؟ وماذا سأقول؟

لعل المعارضة أقل قساوة أو سيصدقون ادعائي بهروبي من مناطق النظام. ولكن النهاية قائمة، واحتمال الموت كبير جدًّا. قلبي الذي سقط بين رجلي من نباح كلب القطيع وصراخ الراعي، كيف سيتحمّل الجنود المدججين بالأسلحة؟!

لماذا لا يأتي الموت دفعة واحدة؟!

لماذا عليَّ أن أموت كل يومٍ وكل ساعةٍ ولحظة؟!

طلقة واحدة تكفي لإنهاء المأساة. لكن ماذا عن جثتي هل تترك هنا لتنهشها الوحوش. وكم من جثة في هذه الثورة سقطت وتركت. هل أعود أدراجي وأدخل القرية؟!

لعل ذلك أكثر أمناً لي من المضي في طريق مجهول. أدرت ظهري وحاولت أن أخطو عدة خطوات وأنا مرهق متوتر خائف. لا لا سأتابع

طريقي. التفت من جديد إلى المفترق. هل أتجه يميناً أم شمالاً. فجأة خطر ببالي أن أمضي في المنتصف بشكل مستقيم لسهولة الاختيار بعد ذلك. دخلت الطريق الأول من جهة الشمال متحاشيًا الأشواك من جانبيه. خطواتي عليه كانت مريحة لي، بعد الغوص في التراب طويلاً. ولكن ما لبثت أن اجتزته في أقل من دقيقة، لأدخل في التراب من جديد.

طريقان معبدان يحيطان بي، وزاوية ضيقة خلفي، ولا شيء يبدو واضحاً أمامي، سوى أشجار الفستق التي تزداد كلما زادت المسافة انفراجًا بين الطريقين.

وهنا التراب ليس كالذي مررت به من قبل. قطعه متماسكة بعد فلاحة تبدو مختلفة عن سابقتها، لأن ممرات قيعان الفلاحة تبتعد كثيراً عن تيجانها، على نقيض سابقها. وهنا بدا المشي أكثر مشقة لي. وأنا مشتتٌ في كل شيء أين أمضي وماذا حصل لي، وذاكرتي المملوءة بأحداث المعتقل، وهذه الأرض، مضيت لأكثر من كيلو متر حتى لم أعد قادراً على الحركة مطلقاً.

جلستُ مستنداً إلى جذع شجرة. أمسكت هذا الهاتف العقيم، ما فائدة آلة لا حياة فيها، لا تغطية ولا شبكة على شاشته السوداء، فقط هناك زر "اتصال بالطوارئ". هل أتصل، ومن تراه سيرد عليّ، وأنا لا أعرف إن كنت في مناطق المعارضة أو النظام، أو مناطق سيطرة الميليشيات الإيرانية أو

الروسية وربما الأمريكية. ما هذه الورطة، لعل كسره أولى أو دسّه في جيبي ونسيانه أفضل.

رحت أفكر في الخروج من هذا الضياع. أنا الآن بلا هدف وبلا مكان لا أعرف ماذا أفعل ولا أين أتّجه. اختلطت على الأمور حتى غفوت وماصحوت إلا والشمس تحرق وجهي، خدي اليمين قد فعل به التراب مافعل وترك عليه آثاراً وحفراً. حرارة جسمي عالية من أثر الشمس ورأسي ثقيل جداً. حتى أن طعم فمي غريب، حاولت أن أرفع رأسي المثقل بكل شيء، جاهداً حاولت واسندت ظهرت إلى جذع الشجرة. قربت رجلي من جسدي ضممتها إلي بكلتا يدي، رحت أنظر حولي، شبه أمواج شفافة تتحرك كسراب فوق التراب ربما بخار ماء بسبب الشمس، عصافير صغيرة مفردة بين هنا وهناك، عيناي تحترقان من دمع وألم، الجفاف ممتدٌّ من شفتي إلى حلقي، معدتي تعزف مع العصافير معزوفتها الروتينية عند الجوع، التي لا أحبها، لأنها تشعرني بالضغف والحاجة. وأين أنا بعد هذا كله؟!

أرجعت رأسي إلى الخلف مستنداً إلى جذع الشجرة وقد أيقنت أني لم أعد أقوى على شيء ولم يعد لي فرصة إلا للموت. نعم فرصة واحدة للموت.

***

نظرت إلى الشجرة أوراق فقط. أتأملها مُحبطاً من كل شيء، هل آكل الأوراق لا أعرف.. لا لا لا يمكن. إذن علي آكل شيء آخر. التراب.. لا سآكل ورقة وأجرّب.

التقطت ورقتين غضتين من رأس أحد الأغصان وقضمت قضمة واحدة ما أشد مرارها. جمعت ما أكلت في فمي واستذكرت ما كان يقدم لنا في أيام المعتقل الأولى من بطاطا وبيض فاسدان، ربما الأمر مشابه، وكنا نأكل ذلك رغبة في الحياة، رغبةً في زيادة أعمارنا يوماً واحداً، ما أشد قهرنا. لا يمكن أن آكل بصقت كل شيء ورميتها فكرت وأنا أنظر في كل اتجاه. صمغ قليل يبدو من أحد الجذوع أسرعت إليه أمسكته بيدي وأغمضت عيني ووضعت بفمي ودون أن أمضغ كما يجب بلعته. فتحت عيني... إنّهُ مُرٌّ جداً. ورحت أبصق.

أردت منديلاً أمسح به أثر التفّ والبصاق، لكن لا أملك شيئاً، مددت يدي ورحت أمسح بطرف كمي حينها لامست أصابعي جيب القميص حيث كانت علبة الدخان. ما سرّ ذلك الرجل الذي أعطاني إياها؟!

لماذا اختارني أنا، وكيف عرف اسمي؟!

تناولت العلبة بسرعة ولهفة، فتحتها. تباً له، لقد جن جنوني إذ كانت خاوية لقد سحقتها بيدي اليسرى بعد فتحها. عيناي تشتعلان غضبًا. ورأسي يكاد يتفجر.

(سحقاً لك أيها الوغد..، آه لو كنت أمامي لذبحتك ورميتك للكلاب أيها الكلب ... تفو على وجهك وشكلك).

أمسكت العلبة بيدي لأمزقها أكثر، لكن تذكرت الولاعة داخلها أخرجتها لأتفاجأ بحروف على طرف الورقة الفضية الداخلية، سحبت الورقة بهدوء وعناية. حاولت صقلها بكفي لإزالة التجاعيد عنها حتى تبقى سليمة أكثر بعد أن خربت شكلها بضغط يدي. قلبتها لأرى جملة واحدة عليها مكتوبة (اتجه شمالاً إلى مورك)، لقد صدمتني هذه الورقة كيف لي أن أنزل بأرض لا أعرفها؟، ولا أستطيع أن أقترب من أحد لأسأله، ولا أعرف عم ماذا أسأله.

وهذا الهاتف القديم البالي يخبرني على شاشته (الشبكة غير متوفرة) لأجد نفسي بلا هدف وبلا شيء، لتطلع لي الرسالة كالمارد من علبة دخان تافهة. الأهم في هذا كيف رتبوا لهذه الأمور والشخص الذي أعطاني علبة السجائر كيف عرفني؟!

كيف للحياة أن تعادُ لمن دخل آتون الموت.

***

رحت ألتفت يميناً وشمالاً وأنا مصدوم خائف، منفعل بدرجة عالية، هل هم يراقبونني، أم أن أحداً ما رآني؟!

كيف أستطيع أن أقنع نفسي بالمضي أو أقنعها بالهروب من هذا القدر. أي الطرق أقرب للموت. وأية لعنة أنا بها. في داخلي تشتعل آلاف الحروب، وعقلي أرض المعركة. الأفكار كلها كالحكام الجبابرة لا يهمها من سقط، وحدي أعاني من عدد الجثث، من سيول الدم، من الأجساد المقطعة قطعاً، من رؤوس سقطت هنا، وأيدٍ هنا وأرجل هناك.

كل هذا لا يفيد عليّ أن أقوم وأسرع حتى لا أسقط من جديد في حيرة ما. أو يفعلوا بي شيئاً لا أتوقعه. حيرتي وقلقي لن يجديا نفعًا. المضي هو مصير لا قرار.

قطعت الطريق المعبد من جديد ورحت أمشي بمحاذاته على اليمين حتى أتجنب أي شخص أو مجموعة مسلحة وحتى أناس بسطاء قد ألتقيهم. لأني بالفعل لا أدري إلى أين أذهب، مع أني كنت قادراً على معرفة أي شخص وانتمائه والتأقلم معه بعد كل ما أخذته من معلومات وتدريب في المعتقل، إلا أن الحذر واجب، ولا حاجة لي في تغيير مساري وخاصة أنهم يراقبونني ومن الممكن أن يفعلوا بي أي شيء. رحت أبتعد عن الطريق في

الوقت الذي اقتربت الشمس من وسط السماء، وازداد الحر وأنا أتصبب عرقاً، وأبطئ المشي عندما اقتربت من مورك.

فجأة رنّ الهاتف. فَرِحْتُ أن تغطية الهاتف عادت، حملته بسرعة، الرقم خاص، لكن كيف يمكن لهذه القطعة عديمة الفائدة أن ترن الآن؟!

ألم تكن بلا نفع منذ ساعات قليلة؟!

ضغطت إصبعي بكامل قوتها، ففتحت الخط أريد التواصل لأقطع دروب الحيرة، مهما كانت النتائج مما سأسمع، جاءني صوت أجشٌّ، بلهجة منفّرة كريهة تلقتها نفسي، ارتسمت صورة من يكلمني أمامي بوجهه القبيح، احمرار عينيْه مرعب: "آلو".

– "وينك إوْلوْ"..

– (كيف سأخبره بكل ما جرى لي، بموتي مرات عديدة، لا يمكن أن يُخْتصر شيء، ويصعب التعبير): "الطريق طويل سيدي".

– "طويل..، ولا كنت فاطس (فاطس: تقال بمعنى نائم عندما يكره الشخص نوم الآخر)".

– "سيدي من التعب ما عرفت غفيت".

– "ثاني مرة ما تغفى ... وخلّ عيونك مفتوحة، ومخّك شغال أحسن ما أفجرلك إياه".

– "حاضر سيدي".

– "ما تدخل مورك خلّيك ماشي بعيد عنها واتّجه شمالاً".
– "لوين سيدي".
– "بعد مورك مباشرة بتصادف بلدة بتدخل عليها عأساس أنك هارب من النظام وهناك بتنتظر خبر منا".
– "سيدي شو في".
– "نفّذ وبلا علاك".
– "حا..". (قطع الخط قبل أن أكمل جملة حاضر سيدي).

***

وضعت الهاتف في جيبي خائفاً غاضباً، وخيوط الحيرة تتجاذبني إلى مجالات عديدة مختلفة لا رابط بينها، تشتُّتٌ ذهنيٌّ وعقليٌّ، بحركات أظنّها غير طبيعيّة أتطلّع، توقّفت قِواي العقلية عن التمييز، أصبحتُ كآلة تتحرّك بلا إرادة منها، وهي منفعلة بالتحكّم الآلي عن بُعد. كان عليّ أن أجعل الطريق بعد مورك على يميني تحاشياً لأي طارئ، أسرعت في المشي؛ أريد أن أعرف ما نهاية هذه المهمّة، ولماذا أنا بالتحديد.
في الطريق بدت الفلّاحة أكثر تنظيماً مما سبق مع أن الأشجار أقل، بعض الحقول تحوي أشجاراً من الفستق، وقليلاً من الزيتون، ولكن الغالب فارغٌ

تماماً، ربما تختلف الزراعة عما سبق. بعض البيوت والغرف المفردة التي كانت منتشرة بشكل عشوائي على جانبي الطريق كانت تجبرني أن أبتعد أكثر ومن ثم أقترب من الطريق، الحذر الشديد كان سيّد الموقف في أرض لا أعرف منها ولا من أهلها أحداً. بدأت الشمس تصفعني عن شمالي، وخلايا وجهي راحت تشتعل وتشتعل لكأنني وضعت وجهي في تنور لتلفحه النار. عادة ما تكون حرارة الشمس شديدة وحارقة في الربيع لنقاء الجو، ثيابي التي ملّتني تمتص من الإشعاع ما يجعلني أثور على جلدي. ساعتين ونصف تقريباً وأنا على نفسٍ واحدٍ، في بداية الطريق عندما نزلت من السيارة كنت أتأفف من التراب وما فيه بسبب صعوبة المشي، وكنت أتساءل بين الفينة والأخرى. كيف للفلّاح أن يتأقلم مع هذه الأرض؟!
الآن لم يعد الأمر كذلك، أصبحت خطواتي أكثر اتزاناً وثقة وقدماي تعتّقتا هنا مع التراب المتكتل الجاف، والمنثور نثراً ناعماً، مع ما تركته الفلاحة خلفها. لعلي ابن الأرض التي لم تلدني ولم أكن لأدرك إليها سبيلاً.

***

أنهيت كلامي وأنا على يقين أني ميّتٌ لا محالة، أنظر إلى خالد والدمع يتساقط من عيني. بعد صمت رهيب نظر إليَّ باشمئزاز، وقال: "بتقوم

بتنقلع من الخان فوراً، وأوعك تفكر ترجع، أو تقول بتعرف حدا؛ لأنك بتكون جنيت عحالك..".

-: "يا خالد الله يوفقك افهمني".

-: "خلص انقلع.. واعتبر دمك مهدور إذا شفتك بعد هاليوم، وانقلع بَرّات (خارج) سوريّة أحسنلك".

قمت مكسوراً مهزوماً مسرع الخطا تحت تهديد خالد الذي أحببته ولم أكن أودّ أن أغادره.

وماذا إن سألت عنّي سورية، كيف ستنظر لي، وقد خذلتها وخذلت أباها.

خرجتُ من خان شيخون وبدأت أبتعد شمالاً، بلا طموح ولا هدف مهزوماً من كل شيء، هارباً من الأرض من الإنسان من الحياة. وأنا لا حول لي ولا قوة في آتون ما وُضعتُ به قسرًا، لا بد أن أترك سورية كلها فقد يصل إليَّ خالد أو عين من عيون النظام.

متثاقل الخطا تائه في طريق لن يقلني إلا إلى محطة أموت فيها، فجأة سمعت صوت طائرة. لحظات قليلة سمعت صوت دوي انفجارات وكأن الطائرة أسقطت عدة قنابل منها على البلدة. بدأت أسمع أصوات الانفجارات صرخت عالياً: "سورييييا!!!!!!!!!!!!".

***

عدت مسرعاً، وقد نسيت كل شيء، لم أكترث بموتي على يد خالد أو أيٍّ من شباب البلدة، ولربما لم أعد أهتمّ بالعالم أجمع. فور دخولي البلدة ذهلت من المناظر، الناس يركضون ويصرخون، شيء يشبه الجنون أو يوم الحشر، أغلبهم أشباه عرايا ومن يرمي نفسه في الشارع وعلى الأرصفة والتراب أو في أي بقعة ماء.

الصراخ والعويل بعض الوجوه مختنقة والزبد يخرج من أفواههم. ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد. إلا أن الشوارع باتت تغصّ بالناس الميتين تقريباً. الحرائق والدخان والكثير من الجثث، هل هو يوم الحشر. الاستغاثة بالله والتشهد أسمعه بين هنا وهناك علو وانخفاض وكأن الجميع يهرب إلى الموت، متى يهرب الإنسان إلى الموت، متى يصبح الموت خلاصاً، يا إلهي ما أسوأ ما أرى وما أفجعني بهم. سيارات الإسعاف لا تبدو كما هي. الكثير من المسعفين مصابون بالاختناق، ماهذا الذي ضرب خان شيخون؟!

هل هو الغاز السام أم القنبلة النووية؟!

بدأت أشعر بالاختناق، ولكن عزيمتي بالوصول إلى بيت خالد كانت أكبر. ويا لهول ما رأيت، خالد وزوجته ملقيان أرضاً جثوت عند رأسه وأنا أبكي، وأنظر إليه وإلى زوجته بقربه.

-: "شو صار يا خالد ... شو صار".

-: "النظام ... المجرم ... ض ض ضربنا ... كيماوي (نطقها بصعوبة وهو يختنق).

-: "شو ؟؟!!".

-: "إ إ إيه".

نظرت إلى زوجته وهي تزبد من فمها وتتشهد بصعوبة بالغة، ولم تقوَ على رفع يدها لقد سقطت. أما خالد فلم يكن يدرك ذلك لأنه أوشك هو الآخر على الموت.

-: "قل لي شو اعمل".

-: "وصيتك سورية"، (قالها باكيًا وهو أقرب إلى الموت) وتابع:
"أ أ أ أ أمانة برقبتك ليوم الدين ... د د د دير بالك عليها".

-: "بعيوني .... تماسك وقل لي شو أعملك".

-: "ما ما ما ما رح ي ي ي ي يفيد شي ..... خ خ خ خ خلص... ل لل لل ل لا إله إلا الله .... م م م م محمد رسول الله".

-: "خاااااااااالد".

ضممته وأنا أبكي وبالكاد أتنفس، لقد سقط خالد، بعد أن أمسك بيدي في المسجد لأنهض وأعطاني من عزيمته، بعد أن أسكنني في بيته، بعد أن أمسك بيدي لننقذ الناس في القرية المجاورة، كم من البشر أنقذهم خالد،

كم من أحمد مثلي مر به، خالد لم يكن فرداً، خالد أمة. تركته، وأردت أن أدخل البيت، لكن الباب كان مغلقاً.

حاولت مراراً أن أفتحه، وقد بدأت قواي بالانهيار. حتى استطعت، دخلت كالمجنون أفتّش عن سوريّة. في أرجاء البيت كافة، حتى وجدتها في غرفة أبويْها تجلس على السرير، وقد ضمت رجليها بيديها خائفة حزينة، مُغطية فمها وأنفها بكمّامة ولكني سقطتُ أرضاً قبل وصولي إليها.

لم أعد أرى جيداً، بدا المشهد ضبابياً، حتى سوريّة التي أصبحت فوق رأسي لم أعد أراها. وهي تخزني بيدها على صدري وكتفي، كأنني بدأت أسمع كلماتها:

"لك قوم .... وين رايح... ما تموت.... أنتو ليش كلكم بتروحوا...، لمين بتتركوا سورية ... ناس بتموت.... وناس بتهاجر ... وأنا سورية ببقى لحالي.. عمامي وخوالي شي هاجر وشي استشهد وما حدا بقي معي ولا حدا بلعب معي ... وأنت جيت ووعدتني ما تروح ... وهلق بدك تروح ... قوم بقى ... بكفي شبعت موت أنا ... خلص يلا ...".

بدأت أحس بيدها تلمس خدي وتحاول فتح عيني ولكنّي لم أكن أقوى على شيء.

تابعَتْ:

"بدك تترك العروس متل باقي الشباب ... إنتو ليش هيك بتهربوا...ليش ... كلكم كذابين .... بتوعدوا وما بتوفوا وبتروحوا كمان.. خلص الجنة تعبت شهدا ... خليكم هون ..." شدتني مرات عديدة وحاولتُ أن ألفظ شيئاً: "أأأ... ما ما ما".

ولكن عبثاً كنتُ أحاول، لم أعد أسمع صوت سوريّة، ولا حتى أحسَّ بلسمها. بدأت أتذكر لحظات كثيرة في حياتي طفولتي..، أمي وأبي وأخواي مدرستي أصدقائي وألعابي جامعتي رحلاتي والكثير الكثير. وأنا بين غرغرة الموت، جفلت من سكب الماء على وجهي. إنها سوريّة لقد انتشلتني من الموت. فتحت عيني، قالت: "فيق بقى...".

حاولت ضمها إلى صدري، ولكن لم أقدر بما يكفي، لا أدري كم مضى من الوقت؛ ليأتي إلينا أصحاب القبعات البيضاء، وأجروا ليَ الإسعافات الأوليّة.

صحوت بشكل كامل، وأمسكت يد سوريّة وخرجنا، وكم وددت لو أني حملتها لكنّي لم أكن أقوى. سوريّة التي كانت تمسك يمناها بيدي وبيسراها لعبتها الصغيرة. لم تكن تعلم أين أبويها حينها، ولكن كنّا مضطرين لمغادرة خان شيخون؛ لئلا نتعرّض لإصابات جديدة وحتى ينتهي أثر الغاز السّام في أرجاء البلدة، وقد لا نرجع إليها مرة أخرى.

ونحن نمضي شمالاً قلت لسورية: "ما قلت لك ما رح أتركك ولا رح هاجر".

نظرت إليّ مبتسمة وضغطت على يدي وقالت: "وسورية ما بتترككم".

●●●

تمّت الرواية

بفضل الله وتوفيقه

المؤلف في سطور

- **محمد عبدالستار طكو**
- مواليد: ١٩٨٣- محافظة إدلب- سورية
- أديب وإعلامي \ مؤسس ورئيس تحرير ***صحيفة ذي المجاز*** الالكترونية الثقافية، شارك في العديد من الأمسيات والمهرجانات العربية والدولية.

المؤلفات المطبوعة

- ديوان شعر (رُشاشَةُ عِطر ٢٠١٤).
- رواية (٣٦ ساعة في خان شيخون).

المؤلفات المخطوطة:

- ديوان شعر (بتوقيت دمشق إلا قصيدة)، مخطوطة.
- (شام ابنتي) مجموعة أناشيد أطفال مخطوطة.

نشاطات أخرى:

- مجموعة أغاني من كلماته غناء عدد من المطربين.
- تطبيق إلكتروني بحور الشعر العربي الفصيح (متجر جوجل).
- تطبيق إلكتروني اللغة العربية السلسة (متجر جوجل).